سلسلة الملاعين

جزّار لندن

منال عبدالحميد

١

الكتـــــــاب: الملاعين: جزار لندن

المــؤلـــــف: منال عبدالحميد

تصميم الغـــلاف: إسلام مجاهد

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقــم الإيــداع: 2015 / 23441

الترقيــم الدولــي: 978 - 977 - 779 - 048 - 2

الإخــراج الفنــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله



العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد القاهرة.

هاتف: 0223952354 - موبايل: 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

جزّار لندن

منال عبدالحميد





الإهداء

إلي كل من ظلمهم التاريخ وظلمتهم الصحف وظلمهم الجري وراء نسب التوزيع ..

إلي ضحايا السفاحين الذين ذهبت دماؤهم وقودًا لتشغيل آلةٍ لا تكف عن العمل ولا ترتوي إلا بدماء الضحايا والمضطهدين ..

إلي كل من داس الإعلاميون على ذكراهم ولوَّثوا حياتهم واختلقوا قصصًا وهمية ولفَّقوا لهم أقوالاً لم يقولوها، وأفعالاً لم يفعلوها من أجل إرضاء ساديَّتهم وساديَّة جمهورٍ متعطشٍ أكثر من كل السفاحين إلي الدماء ..

إلي كل الضحايا في كل مكان .. سيأتي يوم يُصبح لمعاناتكم ولحظات رعبكم مقابل .. وسوف يصبح لآلامكم ثمن !

(١)

نظرت إليه بذعر وهو ينسلُّ، بعد حلول الظلام، داخلاً إلى البيت الذي لم يعد يؤُوبُ إليه إلا لِمَامًا..

وكعادته كانت ثيابه مُلطخة بالدم وكعادتها سألته السؤال نفسه:

"هل لديك مخزون لبيعه غدا؟!»

نظر إليها مُمعنًا النظر في ملامحها التي كَسَاها الهم مُبكرًا وارتجفت شفتاه وهو يجيب ذات الإجابة:

"ألا ترين الدم على ملابسي يا امرأة؟ من كُنتِ تتصورين أنني أعمل على تقطيعه في الحانوت؟! أمك؟! بالطبع لديّ ذبيحة طيبة وسأبيع اللحم غدًا وسنجني المال!»

كانت تعرف أنه يكذب.. فليس ثمة ذبائح وردت إليه من سمسار الماشية منذ شهور، بسبب إهماله للعمل وإغلاقه لحانوت جزارته أيامًا طويلة دون بيع أو شراء، لكنها تظاهرت بأنها تصدقه.. وبسرعة أعدت له طبقًا كبيرًا من الحساء الساخن غير الدسم وتركته يلتهم عشائه وذهبت لتنام.. لم تفكر في مواجهته أو رميه بالكذب علنًا أو مطالبته بالتعقل والاهتمام بعمله وإيجاد مصدر رزق لأطفاله المساكين الذي يقفون على حافة التضور جوعًا.. لم تواجهه ليس لأنه لا يوجد لديها ما تقوله؛ فالحق أنه يوجد لديها الكثير والكثير، ولكنها تخافه.. لقد أصبحت تخافه بشدة.. والسبب أنها تشعر بأن هناك شيئًا شديد السوء خلف هذا الرجل.. إنه، كما تشعر بغريزتها، متورطٌ في أمرٍ بالغ السوء والقتامة!

*****

دخل الرجل غرفته وأغلق على نفسه الباب بعناية.. كان إحكام إغلاق الأبواب والابتعاد عن الأنظار والانسلال كالحية هو الشيء الوحيد الذي يُجيد عمله في تلك الآونة بعد أن تلف دماغه وتآكل بفعل جرثومة ذلك

المرض الخبيث المتوحشة.. الزهري!!

إنهن كلهن مسئولات عن إصابته بذلك الداء الوبيل الذي يحلل جسده وعقله بروية وعلى مهل.. لم تعرف زوجته ماذا أصابه لكنه تغير.. تغيرًا تدريجيًّا ملحوظًا خطِرًا مثيرًا للفزع.. بدأت الأمور ببدايات بسيطة لكن الرياح الهادئة سرعان ما تحولت إلى إعصار مجنون يقتلع كل ما يصادفه في طريقه أو يمر بقُربه..

بدأ "جيكوب»٢ يُهمل في عمله.. لم يكن الأمر خطيرًا لكنه بدأ يترك عمله بشكل مبكر عن المعتاد، ثم أخذ الزبائن في الشكوى منه.. قالوا إنه يغش في الموازيين، وإنه يبيعهم لحومًا رديئة.. ثم قيل على ألسنة البعض إنه يبيع لحومًا مغشوشة من الأساس وأن ما يقدمه للزبائن ليس إلا لحوم كلاب وقطط ضالة يصطادها من الشوارع!

قيل هذا وشاع بين بعض الزبائن، خاصة الجدد منهم، لكن أحدًا لم يصدق تلك الترهات.. واستمر الزبائن في التردد على حانوت السيد "ليفي" لتجارة اللحوم.. لكن "جاكوب" نفسه هو من بدأ في النهاية يطردهم!

تواصلت مواقفه السيئة وأعماله غير اللائقة تجاه الزبائن حتى هربوا منه واحدًا تلو الآخر.. قلَّ الزبائن وتدهورت الأعمال تدريجيًّا، ثم بدأ الحانوت يفلس حينما امتنع تجار الماشية عن تزويد "جاكوب" بالذبائح لأنه لم يعد يدفع لان الحانوت لم يعد يبيع شيئًا.. وفي خلال أشهر كان حانوت "جاكوب ليفي" لبيع وتجارة اللحوم قد أضحى مجرد مبنى مهملاً تملؤه البقايا المتعفنة ويرفُّ عليه الذباب من كل جانب ولا يخطو ناحيته زبون واحد ولو حتى بالصدفة!

لم يكن "جاكوب" في تلك الأيام في وضعٍ يسمح له بتحمل هذا كله.. إن الجرثومة تنهش جسده وتُلوث دمه وتُذيب أحشائه.. إنه يشعر بها تدب في خلاياه وتسري خلال عروقه مُحدّثة إياه.. أجل.. فبعد إفلاس حانوته ببضع أيام بدأ السيد "ليفي" يسمع الجرثومة الساكنة في دمه تتحدث إليه وتبادله حوارًا طويلاً كل ليلة.. كل ليلة حينما يأوي إلى فراشه البارد الخاوي، فقد نقلت زوجته وسادتها وأغطيتها إلى سرير آخر، تبدأ الجرثومة الرابضة هناك في الظلام تكلم مضيفها وتؤنس وحشته!

*****

في الظلام وقفت تنتظر ما هو مقسوم لها الليلة.. لم تكن ليلة طيبة بالنسبة لها فلم تُصب فيها أي بنس ولم يقترب منها زبون واحد.. قالت لها رفيقتها "بولي"[3] ساخرة:

"اغتسلي مرة في الشهر يا فتاة.. من سيقترب منك وأنت لك رائحة كرائحة ابن عرس!»

كانت "بولي" الملعونة تسخر منها لكن "كاترين" لم تُعِرها التفاتًا في الحقيقة كانت قد تعودت على فكاهات زميلتها السمجة:

"وأنت كيف تبدو رائحتك يا "ماري؟!»

أربدّ وجه الأولي وهتفت بزجر وصرامة:

"لا تنادني "ماري" ثانية.. لا أحب هذا الاسم! «

ولهذا السبب نادتها به.. فقد كانت تعرف مدى كراهيتها لاسمها الحقيقي، وأنك إذا أردت تعكير مزاج الآنسة "بولي" فما عليك إلا أن تناديها "ماري»!

في هذه اللحظة جاء شخص ما واحتكَّ بـ "بولي" وهي واقفة في المسافة ربع المضيئة من الزقاق.. كان يبدو عليه أنه زبون قديم من زبائنها

المخلصين، بسبب لمسته الجريئة الودية لها.. فقد كان يعرف أنها ليست إلا بغيّ!

كلتاهن كانتا بغيَّات.. "كاثرين إيدوز" و"ماري، "بولي" حتى لا يتعكر مزاجها، آن نيكولز»!

جمعتهما المهنة الحقيرة والعيشة المضطربة الوضيعة المترعة فقرًا وحرمانًا ومهانة.. وفرقتهما الغيرة وسخافات النساء وقلة العقول.. لكن حدثًا قريبًا؛ حدث غير متوقع، سيجمع بينهما من جديد.. وسُيكتب اسمهما متجاورتين مترافقاين إلى الأبد!

*****

للمرة الثانية خرج "جاك" تلك الليلة.. بمجرد أن اطمأن إلى أن زوجته وضعت نفسها في فراشها المفرد في غرفة نوم البنتين.. ورأى الظلام الحالك والصمت يريمان على البيت حتى أدرك أنه في حل من أن يزجي وقته الطويل الممل بأية طريقة تحلو له.. كان بوسعه الآن الخروج ومغادرة المنزل والذهاب أينما يشاء ليقضي بقية ليلته بعيدًا عن هذا الفراش

البارد الصلب.. همَّ بالنهوض وارتداء ملابسه لكن صديقته لم تتركه في حاله:

"""جاكوب»!

قالت وهي تلمس جانب وجهه بأصابعها الطويلة الملفوفة ذات الأظافر المعقوفة بإغراء:

"جيكوبي الصغير اللذيذ أين سنذهب؟! «

ارتعشت أهدابه وهتف مغيظًا في وجهها:

"دعيني وشأني.. أذهب حيثما أشاء عليك اللعنة.. ابتعدي عن طريقي!

»

لكنها لم تبتعد بل رعشت أهدابها الطويلة وقالت بلهجة مغناج:

"جاكوب" حبيبي.. لقد صرت عصبيًّا جدًّا هذه الأيام.. ألن تأخذني معك؟!»

بالطبع لم يكن يقدر على منعها من مرافقته إلى أي مكان يذهب إليه، لكن جنونه غير الحميد جعله يتخيل أن بإمكانه فعل ذلك:

"لا لن آخذك معك! اذهبي إلى الشيطان.. اتركيني وحدي! «

وهنا جلجلت ضحكتها المائعة.. أسبلت أهدابها وأخذت تضحك ضحكة دوت عبر أروقة الوجود بأسره.. ضحكتها جففت الدم في عروقه وأوقفت تنفسه.. فقد أعصابه.. هجم عليها راغبًا في محقها ومحوها من الوجود.. لكنها تبددت من فوق طرف الفراش أمامه.. خبط الفراش بيده الضخمة المكتنزة بقوة فاصطدمت بعظم الفراش وجعلت أصابعه تطقطق احتجاجا وتصيح ألمًا.. تلفت حوله كالمجنون فرآها واقفة لدى الباب تنظر له بابتسامة عذبة مُراودة:

"أين ذهبتِ عليك لعنة الشيطان!»

ابتسمت وهي ترد عليه برِقَّة مُحركة جفونها:

"أنا هنا يا حبيبي.. تعالي خذني!»

مدت إليه يدين طويلتين عاريتين مُزينتين بعقود وأساور ضيقة من الرسغين حتى أعلى الكتفين، مثل نساء الليالي العربية الجميلات، فذهب إليها على الفور.. لم يكن ينوي أن يلقي بنفسه بين هذين الذراعين الممدودين إليه بل كان ينتوي أن يغرس قبضته في وجهها مُورما عينيها ومُسببًا لها عاهة مُستديمة تمنعُها من التدلل بعد ذلك.. لكنه عندما

وصل إلى حيث كانت تقف لم يجدها.. راوغته الملعونة وعاكسته لتظهر من خلف ظهره في بقعة أخرى من الغرفة المسكونة بظلها المخيف.. كان ظلها يسكن غرفته المغلقة عليه كما كان يسكن دمه!

إنها لا تكتفي بالمراوغة ولا المعاكسة.. بل هي طامعة في المزيد وقد بدأت تطلب أشياء.. أشياء لا يجرؤ حتى على ذكرها!

*****

في غرفتها جلست "سارة" فوق فراشها مذعورة تتسمَّع بخوف إلى الأصوات الغريبة الآتية من غرفة زوجها التي يبيت فيها بمفرده.. كان الرجل يتحرك في الغرفة حركات غير منتظمة ويدب بقدميه الغليظتين متنقلاً بين أرجاء الحجرة الضيقة وكأنه يطارد غزالاً شاردًا يعدو ويعدو خلفه مُحدثًا أصواتًا مرتفعة واضحة.. ثم بدأ يتكلم ويعلو صوته الواضح وهو يناقش نفسه ويجادلها جدالاً حادًّا:

"لا لن أفعلها ثانية الليلة.. هل فهمتي أيتها الحيَّة؟!»

لم تكن الزوجة المسكينة تعرف ما هذه التي لن (يفعلها) الليلة مرة

أخري، ولا من هي تلك اللعينة التي يخاطبها بهذه الحدة.. لكنها كانت واثقة من شيء واحد فقط، أنه ليس ثمة أحد آخر في الغرفة برفقة زوجها سوى روحه المضطربة، وأنه لا يحادث، بكل هذه الغلظة والقوة، سوى نفسه!

لقد جُنَّ الرجل ما في ذلك من شك.. فَقَدَ عقله تمامًا وصار خطرًا!

لكن من أين يأتي بالدماء على ثيابه كل ليلة إن كان لم يعد يُزاول عمله في متجر اللحوم أصلا؟!

ما الذي يحدث لك.. ما الذي يحدث لك ومعك يا "جاكوب ليفي" العزيز؟!

(٢)

غادر منزله بعد أن أسدل الظلام أستاره الكثيفة على الكون خاصة تلك المنطقة الغارقة في العتمة ليلاً ونهارًا..

حافة لندن الشرقية٤ في ليلة من شهر أغسطس ١٨٨٨م.. كانت المنطقة غارقة في ظلمة حالكة لا يُبددها إلا القليل من الأنوار المُبعثرة المُنبثقة من هنا وهناك.. لكن حتى تلك الأنوار لم تكن مُوحية بالراحة والأمان والطمأنينة بل كانت باعثا على المزيد من الخوف والقلق.. كانت مُخيفة ومُثيرة للتوتر وللأخيلة الشريرة!

الحق أنه لم يكن بحاجة لتلك الأضواء المتناثرة البغيضة لإثارة مثل تلك النوعية من الأخيلة في مؤخرة عقله نصف النائم نصف اليقظ.. فهو يعاني منها منذ سنين ولا يملك لها دفعًا!

لماذا تُداهمه تلك الخيالات المحمُومة التي يرى فيها جُثة مُقطعة مُمددة عند قدميه؟!

إنه ليس شريرًا ولا مُتوحشا أبدًا.. لم يكن كذلك مُطلقا.. لكن لماذا تدهمه تلك الرؤى المفزعة إن لم يكن شريرًا بطبْعه؟!

لعله ذلك الغول الذي يرسب في أعماقه.. الزهري!

كان يجب أن يكون بالمستشفى الآن مُستلقيا في فراش عفِن بعنبر مليء بالمصابين بالزهري مثله؛ منتظرا المنَّة الأخيرة التي يجود بها العالم على مرضي السفلس.. الموت!

لكنه لم يكن ينتظر الموت.. أو على الأقل ليس بكل هذا الشغف، فما زالت القوة تسري في عروقه، لم يسقطه الزهري أرضًا بعد، ولم يسلبْ منه عقله، ما زال مالكًا لوعيه وإرادته.. وبتلك القوة والإرادة التي تبقَّت له، وبعقله الذي ما زال سليمًا قادرًا على التخطيط وإحسان التنفيذ، وبكل خلية لا زالت سليمة في بنيانه، يتوق إلى الانتقام!

ولكن ممن؟!

إنه لم يعرف ذلك بعد؛ ولازال يبحث عن أفضل وجه يمكن، ويستحق،

توجيه انتقامه إليه.. ولأي شيء؟!

إنه يعرف هذا جيدًا جدًّا.. على إصابته بذلك المرض الذي لا شفاء منه وهو في حمئة الشباب ومعقد الآمال!

كان يتمشى بلا هدف في تلك الأنحاء المُوحشة.. وخلال تجواله لمح عديدًا من تلك البيوت القذرة مضاءة النوافذ، تنطلق منها الأبخرة الطيبة المخدرة وتعبق برائحة العطور الرخيصة والبخور الشرقية المقلدة وكريمات التجميل النسائية المغشوشة، داعية زبائنها ورُوَّادها إلى بضائعها.. ولم تكن تلك البيوت وأمثالها تقدم طعامًا أو حساءً أو شرابًا، أو تعرض عليك أقمشة أو ثيابا أو أفاويه٥.. بل كانت تقدم إليك لحمًا بشريًّا، وتعرض عليك نساء وفتيات من مختلف الأشكال والألوان والأحجام والأعمار!

كانت مواخير عفنة تعمل بها المئات والمئات من النساء اللائي وُلِدْن في ذلك العالم للتعاسة والشقاء.. ولم يكن صاحبنا بمُستجد ولا غافل عما يدور في تلك الأماكن.. بل ذو باع طويل وصاحب قدم راسخة على عتبات تلك البيوت الموبوءة.. حوانيت اللحم البشري المقززة!

ورغم أنه كثيرًا ما تردد على مثل هذه الأماكن، وولغ في دنسها، إلا أنه كثيرًا، ولا يدري لم كان يُخامره ذلك الإحساس دومًا وهو منغرس الأعقاب هناك، أنه يجول في متجر قصاب يبيع لحم بشري مذبوح.. لم يشعر أبدا أن الفتيات اللائي حكمت عليهن الأقدار بالعمل في تلك الأماكن حيات أو نابضات العروق.. بل كان يشعر أنهن تماثيل ميتة من الشمع أو جثث آدمية بُعثت فيها الحركة، وليس الحياة، عن طريق السحر والشعوذة!

لماذا كان يداهمه ذلك الإحساس دائمًا وأبدا؟!

لم يكن يعرف حينها، ولا يريد أن يعرف الآن.. وعموما فكل ذلك أصبح من الماضي البعيد!

إن الزهري يأكله ويأكل جسده الآن.. والسبب! هن هؤلاء البائسات الساقطات السافلات! لولاهن لكان أمامه مستقبل مشرق عريض يعيشه، وأيام مديدة سعيدة يحياها.. لكن الآن؟! لا ينتظره سوى أيام من الآلام والتعب والعذاب.. تتلوها سويعات من الاحتضار المؤلم.. ثم لا شيء! عالم مجلل بالضباب كضباب لندن لا ينزاح إلا ليتراكم من جديد!

زفر في ضيق وهو يتجول في الأحياء الفقيرة الوضيعة متطلعا، بين الفيْنة والفيْنة، إلى نوافذ بيوت اللهو وأبواب الحانات التي تشع منها الأضواء الغبية القاتمة.. لا شيء هنا بقي له! لا شيء إلا الموت!

مرت كتلة هواء ثلجية وسرت معها القشعريرة في جسده، أحكم معطفه حول جسده اتقاء البرد.. لكن البرد كان ينفذ إلى عظامه الملتفة بالمعطف الثقيل وكأنه ينبع من داخله ولا يأتي من الخارج!

تُرى هل تلك الجرثومة اللعينة تنفث البرد في أحشائه؟! إنه لا يعلم ماذا تفعل الجرثومة في جسده بالضبط.. لكنه يعلم شيئا واحدا.. إنها ستقضي عليه قريبا لا محالة!

كان قريبًا من المستشفي وبوسعه الدخول والبقاء لو أراد.. لكن ماذا سيصنعون له هناك؟! ليس لمرضه علاج.. ليس للزهري علاج ولا ترياقٌ شاف.. وليس أمامه سوى الانهزام والاستسلام للموت!

انقبض قلبه حينما فكر فيما سيئول إليه حاله بعد فترة قصيرة، ولن تطول على أية حال، حينما ينهزم أخيرًا، ويرقد فوق فراشه الصلب مُنتظرًا الموت.. سيأتي الموت حتمًا ولن يعفيه من دفع الضريبة الثقيلة

الوطء.. ضريبة الأيام اللاهية العابثة التي قضاها، ضريبة الاستمتاع بما لا يملك وبما لا يحق له التمتع به.. جثة متعفنة متحللة؟!

أيمكن أن أصير أنا، أنا ودونًا عن سائر أولئك البشر السخفاء الذين يدورون ويسيرون كالحيَّات، كالثعابين نافثة السم، من حوله، جسدًا نخِرًا.. هل ستتخشب أطرافي؟! هل ستسيل مقلتي عيني، ويسيل الزبد الدامي من عيني وأنفي.. هل سأنتفخ كالبالون؟! هل ستنحل أنسجتي وتسيل وتختلط بالتراب.. هل سأتفسخ نهائيًّا ولا يتبقى مني سوى هيكل من عظام لا تلبث أن ينخرها الدود هي الأخرى؟! هل سأصبح مجرد قبضة تراب.. كل تلك الحيوية والقوة، الأحلام والتطلعات التي كان بوسعي تحقيقها، حياة عريضة تركتها خلفي وأخرى تومض أمامي داعية بالسعادة واعدة بالمتعة، ذلك الجسد الفتيّ الحديديّ والمخ الكبير الذكيّ المضمخ بأريج العبقرية وشوارد النبوغ.. كل ذلك هل يمكن أن يصبح قبضة تراب؟!

ولأجل ماذا؟!

لأن ساقطة أمية تافهة، لا تساوي ربع بنس، نقلت إليَّ الجرثومة من

أحشائها العفنة؟! سالت الدموع على وجنتيه الآن.. دموع الغيظ والقهر والحسرة.. والرغبة في الانتقام! إنه يريد أن ينتقم حتى وإن كان لا يعرف ممن.. إنه يريد أن ينتقم حتى لو كان يعرف أن ذلك لن يؤجل موته ولن يمنعه! فعلى الأقل سيموت راضيًا.. على الأقل سيموت متسنمًا ذروة آماله التي تحطمت بذراعين خاليين من الثقل ومن الجلاميد التي يحملها فوق رأسه؟!

لا!

فليجعل من موته موتا للكثيرين.. وليجعل من جسده الفاني أسطورة باقية.. حتى وإن كانت مجهولة الاسم!

(٣)

ليلة جرداء حقا!

ليس هناك سوى زبونين فقط طلبا خدماتها الليلة.. لماذا؟!

هل اختفى الرجال أو انتهوا.. أم تابوا عن الخطيئة.. أم أنها لم تعد جذابة بما يكفي لجلب الزبائن؟!

بالتأكيد إن هناك خطأ ما لكن لم يصل إلى علمها بعد ولم تعرفه.. عادت إلى حانة تعرفها جيدًا في (بريك لين) سبيتلفيلدز٧.. ودون أن تستأذن صاحب المكان الذي كان على معرفة جيدة ووثيقة بها، دخلت إلى الحمام العفن الصغير الذي تسلخ وتساقط ملاطه، ووقفت في البرميل الخشبي، خلف ستار رث، حيث كان يمكن للزبائن الملاصقين للستائر، ملاحظتها ورؤية حدود جسدها الخارجية، من خلال ثقوب

وشقوق الستار المتهافت، ولم يكن هذا يسبب لها أي ضيق بالطبع.. لكنها وقد تذكرت أن هذه المشاهدة المجانية لن تكون مدفوعة الأجر، سارعت بسكب بقية الماء على جسدها.. ثم غادرت البرميل الخشبي ووقفت على أطراف قدميها فوق البساط القبيح المتهرئ، ولفت نفسها بفوطة متسخة وجففت نفسها سريعا.. ثم ارتدت ملابسها، ونثرت شعرها المبتل قليلا على كتفيها وشرعت في تمشيطه بسرعة، ثم وقفت أمام مرآة ورجلت شعرها جيدا، وأخرجت من حقيبة صغيرة، كانت تخبئها في صدرها، علبة بودرة نسائية حمراء زاعقة اللون، وفتحتها ونثرت المسحوق على وجهها كيفما اتفق دون نظام دقيق، حيث طرطشت الحبيبات الحمراء على الجبهة وأعالي الخدين خفيفا، بينما تكونت وتراكمت بقعتان حمراوتين كبيرتين على الخدين بشكل جعلها أشبه بالمهرج.. ولم يكن هذا التجميل الصبياني الخالي من الذوق، مما يجافي ذوق "بولي»، أو أذواق زبائنها الذين أتى أغلبهم من قيعان المجتمعات أو من طبقة العمال المهاجرين، لذلك فلم تشعر بأي شيء غريب أو غير سليم وهي تطالع النسخة النهائية من وجهها في المرآة المتسخة.. ابتسمت لنفسها

وغطت كتفيها بشال، اتقاء لتيارات الهواء المسائية المفاجئة، وغادرت الحمام، المفتوح لكل من هب أو دب أو لكل من لديه عينان في رأسه تمكنانه من النظر عبر ثقوب الستارة وخروقها العديدة، والتحفت شالها جيدا.. وخرجت إلى الطرقات المظلمة بغية اصطياد زبون!

لم يعد لأولئك الزبائن حجة بعد.. فلقد اغتسلت وأزالت الأوساخ المتراكمة على جلدها، ودعكت نفسها ببقايا قطعة الصابون التي كانت تدخرها لحمام كبير منعش تنعم به بعد ليلة مجيدة تحقق فيها دخلا يفوق كل ليلة أخرى، ولطخت وجهها بالأصباغ وبالمساحيق حتى كادت تحاكي الأراجوز سخفًا وإثارة للسخرية.. ولذلك فمن حقها الآن أن تحلم بزبون مليء ينفحها ببضع جنيهات، وليس بضع بنسات، دفعة واحدة!

غادرت "بولي" الحانة من خلال رواق صغير في مؤخرتها كان يحتله بعض الزبائن غير المتعجلين برفقة بعض الفتيات الشابات والمراهقات.. وكن في معظمهن من حديثات عهد بتلك المهنة؛ لذلك ظهر الاضطراب على أوجههن الصغيرة، والحيرة كذلك، فهن لا يعرفن كيف يرضين زبائنهن الثقلاء ولا بأية طريقة يحظين ببنساتهم اللعينة.. نظرت "بولي

"وهي تمر عبر الرواق المظلم إلى وجه الفتاة الصغيرة "هيدويج"
وشعرت، ربما لأول مرة في حياتها، بالشفقة نحو مخلوق بشري.. فقد
بدت الفتاة بائسة مثيرة للشفقة وهي تنتقل من زبون إلى آخر عارضة
خدماتها بطريقة تماثل تلك التي تعرض بها طفلة قطعة من الحلوى على
صديقتها وهما تلعبان (الحجلة) معا، ولم يكن في هذا أي تشبيه متجاوز
حدود الحق.. فلم تكن "هيدويج" الصغيرة سوى مراهقة طفلة، غادرت
لتوها مروج الطفولة الخضراء لتجد نفسها في صحراء الكبر وفيافيه
المجدبة.. هجر أبيها السكير الأسرة، وعانت أمها الأمرين لتوفير القوت
الضروري لابنتها الكبرى ومعها أربعة من الصبية الصغار، ولما أعيتها
الحيلة وعجزت عن الصمود، انهارت وتوارت مثلها وقناعاتها، ودفعت
بابنتها إلى الوحل من أجل أن تأتي لهم بلقمة ملوثة، لكنها أفضل من
الجوع على أية حال.. وكان على الفتاة ذات الأربعة عشر ربيعًا أن تخرج
إلى الشوارع بحثًا عن الزبائن.. وسرعان ما عثرت عليهم، وبنفس
السرعة عثر عليها أحد قوادي الحافة الشرقية الذين هم أكثر من
الذباب عددًا، واستأجرها لتعمل في حانته وماخوره مقابل بضع قروش

يوميًّا.. لكن منظر الفتاة / الطفلة وهي تحاول إرضاء الزبائن وتُقدم الخدمة لهم كان أمرًا مثيرًا للشفقة وحتى للألم.. حتى أن "بولي نيكولز»، التي لم تكن مجردة من مشاعر الأمومة تمامًا، نادتها برفق من مكمنها في مقدمة الرواق:

"هيدويج»!»

نظرت إليها الفتاة بوجه محمر وعينان واسعتان سوداوان، تكاد الدموع تسيل منهما، فأثارت في نفسها المزيد من الشفقة والرحمة:

"هيدويج!»

كررت "بولي" وهي تشير بيدها إلى الفتاة لتحضر إليها، ولم تتوان الفتاة عن تلبية إشارة البغيّ العجوز.. جاءت إليها البنت فمدت يدها تلمس خدها الساخن وهتفت لها وهي تتنحي بها جانبًا:

"لا تدعي أحدا ذو طفح أو لديه بثور ضخمة صلبة على جلده يقربك يا فتاة!»

نظرت إليها البنت، التي لا تعرف عن واجبات مهنتها الجديدة إلا أقل القليل، مستطلعة مستفهمة فأكملت المرأة الخبيرة نصيحتها الطيبة:

”إنهم مصابون بالسفلس يا فتاة.. وسيصيبونك بالعدوى! ستتقرحين وتتعفني حية وتموتي في خلال سنوات قليلة بعد أن تصبحي مثل الكلب الأجرب!»

أغمقّ لون الفتاة قليلاً فضحكت ”بولي” ضحكة خالية من الخبث وأكملت:

”لو صادفت أحدهم فشوطيه لي.. إنني محصنة ولديّ مناعة ضد الزهري أما أنت فلا!»

ابتسمت الفتاة ابتسامة رقيقة فحز منظرها في قلب ”بولي»، الذي لم يكن متحجرًا بالقدر الكافي المطلوب في الحافة الشرقية، وأخرجت من بين ثيابها صرة صغيرة بها بضع بنسات ودفعتها كما هي، ودون أن تفتحها، إلى يدي الفتاة:

”خذي هذه القروش وعودي الليلة إلى أمك.. السكارى والمنحرفون كثيرون الليلة وقد يلحقون الأذى بك دون أن يدفعوا لك بنسًا.. يمكنك أن تخرجي إلى العمل غدا أما الليلة فلا!»

فاضت مشاعر ”هيدويج” فقربت وجهها من رفيقتها العجوز وكادت أن

تقبلها لولا أن الأخيرة دفعتها برفق إلى الخلف مبعدة إياها عنها وهتفت بحدة:

"ابتعدي عني يا فتاة.. لا أحب تلك اللحظات العاطفية السخيفة!»

ذهبت "بولي" مخلفة البنت وراءها.. كانت الفتاة تشعر بالعرفان وربما المحبة نحو الفاسقة الأربعينية الحنون، وكانت الأخيرة تشعر نحوها بشعور غريب بدأ يتنامى داخلها، شعور بالأمومة والرغبة في فرض الحماية.. لكن "بولي" إن شاء لها القدر أن تعيش أياما إضافية فقد كان حريّ بها أن تندم على تفويتها قبلة "هيدويج" لها.. فقد كانت ستكون القبلة الحقيقية الوحيدة التي تلقتها في حياتها الطويلة التي كادت تنتهي وأوشك خيط لؤلؤها أن يتمزق وتتناثر حباته على الأرض!

*****

تمشت في الأزقة المظلمة التي تفوح منها روائح العفونة آملة العثور على زبون مليء الليلة.. داهمتها الرائحة المتراكمة المتعفنة لكنها تذكرت أنها أهون كثيرا مما سبق ولولا جهود المرحوم جوزيف بازلغيت٨ لكانت الآن ربما غير قادرة على التقاط أنفاسها من فرط عفونة روائح لندن المثيرة

للغثيان..

لم يكن موقف "بولي" نحو الفتاة الصغيرة "هيدويج" غريبًا أو مُفاجئًا، فهي بالحقيقة أُمّ أيضًا! لا أحد من رفيقاتها في العمل الوضيع، ولا حتى رفيقتها وشريكتها في الغرفة "ماري هولاند" التي تدلل نفسها باسم "نيللي"، يعرف شيئا عن زوج "بولي" السابق ولا عن أطفالها الخمسة، الأطفال لا يجب أن يكون لهم علاقة بهذا كله.. الأطفال لا يجب أن يعرفوا شيئًا عن والدتهم وسيرتها وما تفعله لكسب العيش بعد أن تخلى عنها أبيهم وتوقف عن دفع شلناته الخمس البائسات لها!

تبًّا له.. هل كان يظن أنها ستهلك جوعًا دون شلناته؟! فليذهب إلى الجحيم على أية حال.. لكن مهما يكن الأمر فإن "أليس" و"إليزا" لا يجب أن تعلما شيئًا عما تفعله والدتهن وما تقوم به.. فيكفي ضحية واحدة لهذا الزمان الغادر المظلم! ولا تدري لم ظلت صورة الفتاة المراهقة، الطفلة التي أُجبِرت على الدخول لعالم النساء الساقطات الحالك الظلام، تلازم "بولي" طوال سيّرها في الأزقة المليئة بالدخان والضباب المنخفض وحتى وجدت نفسها، فجأة، أمام الزبون المنتظر!

حينئذ تبخرت صورة "هيدويج»، وحتى صور ابنتيها، من رأس المرأة التي قضت عمرها في مساومة مع العالم بأسره.. وها هي تستعد لمساومة جديدة مع زبون يبدو مليئًا ويبدو مُوسِرًا لدرجة تجعلها واثقة من إمكانية الحصول على أجر عادل أكبر مما تخطط له حتى.. وعلى شرط أن تجيد فن المساومة الصعب كما تجيد تقديم خدماتها له!

ويبدو أن نجم "بولي" الحارس كان متيقظًا الليلة، لأنها سرعان ما عثرت على طلبها.. فعلى جدار متهدم قريب من خط سيرها استند رجل أنيق يعتمر قبعة عالية ويرتدي ثيابًا نظيفة معنيٌّ بها جيدًا، ويمسك في يده حقيبة (جلادستون) جعلته يبدو شبيهًا بمحام أو طبيب.. وأيًّا ما كانت وظيفته، وهو الأمر الذي لم يكن يعني الساقطة العجوز في شيء، فإن منظره ينم عن يُسْر حال ومركز مرموق ورجل تربي جيدًا في بيت كبير محترم، ولم ينشأ على خوف الفقر أو ضياع المال أو الحرص الشديد على الشلنات القليلة من أجل وجبة عشاء، قد يحصل عليها وقد يضطر للنوم على الطّوى.. وبالتالي فهو لن يُساوم البغيّ الفقيرة المسكينة ولن يُفاصل معها في السعر المطلوب، بل سيدفع عن طيب خاطر.. وبالفعل فقد كان

السيد، الذي تُخفي القبعة المرتفعة ملامحه إخفاءً شبه كامل خاصة مع الظلال التي تلقي بها الأضواء الخافتة في الزقاق شبه المظلمة، متشوقا فيما يبدو لخدمة صغيرة لأنه ألقى سيجارة رفيعة كان يدخنها أرضًا، حينما لمح خيال المرأة يتقدم نحوه في الزقاق، وداسها بقدمه محطمًا بقاياها التي كانت لا تزال تنفث الأدخنة، وأشار إليها ممسكا بطرق قبعته إشارة فهمتها جيدًا.. الرجل لم يكن عبيطًا أو متسرعًا، فهو لم يأتِ إلى هنا عبثًا، لم يترك كافة أحياء لندن، ويأتي إلى (وايتشابل) البائسة في مثل تلك الساعة من الليل ليصطاد السمك أو يلحس المربى، فهو يعلم جيدًا نوع المهنة التي يمتهنها أغلب سكان الحافة الشرقية لعاصمة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، ونوعية النساء اللائي يجُلن في طرقاتها في تلك الساعات المتأخرة:

"لابد أنها واحدة منهن!»

حدث نفسه وكانت بالفعل (واحدة منهن)..

كانت امرأة بائسة تحمل فوق كاهلها أربعين عامًا، من العذاب، ومستعدة لبيع جسدها وكرامتها، إن كانت قد تبقت لديها أوقية منها، وحتى روحها

نفسها، لقاء الحصول على أربعة بنسات من أجل فراش تريح جسدها فوقه وتفرد عظامها عليه.. لذلك فلم تخيب المرأة رجاء السيد المهذب.. بل اقتربت منه على وجه السرعة واحتكت به على نحو مكشوف وهمست وهي تبتسم وتداعب خصلة نافرة، عمدًا، من شعرها وتقول له برقة مصطنعة:

"أوه! أيها السيد.. هل تبحث عن أحد؟!»

من بين شفتين رقيقتين رفيعتين خرج صوت مرح خفيف النبرات:

"نعم.. أبحث عنك يا فتاة!»

سامحك اللّه أيها السيد، فرغم تجاوزك بإطلاق لفظ فتاة على تلك الحيِّزبون التي ماتت روحها منذ عشر سنوات على الأقل، إلا أنك تبدو ظريفًا لطيفًا محببًا، وربما جديرًا بأن تُحب أيضًا:

"أنا في خدمتك!»

هتفت "بولي" ثم أزاحت جزءًا من قب ثوبها مُظهرةً جزءً من كتفها بطريقة تجيدها من يعملن بمثل عملها:

"هلُم.. تعالي معي!»

أمسك يدها وقادها مبتعدين.. لم تفهم البغيّ سبب ترك المكان المنزوي الطيب الأول، فكل الأماكن في (وايتشابل) أماكن صالحة لتأدية مختلف المهام، بما فيها المهمة المنوطة بأمثالها.. لكن يبدو أن السيد / الزبون كان يعلم أين يقودها بالضبط:

"«هل سنذهب إلى نُزُل يا سيدي؟!»

كان ذلك هو ما خطر ببالها.. فرحت قليلاً فربما يكون كريما إلى درجة أن يحترم ما تبقى من آدميتها ويقودها إلى غرفة في نزل بدلاً من أن يطلب منها خدمته في زاوية مظلمة من زوايا الشوارع الكثيرة.. لكن لا! سرعان ما تبدد الخاطر.. وأدركت على الفور أين يقودها!

"وما الفارق أيها الأبله؟!»

تساءلت بينها وبين نفسها بالطبع، ودون أن تجرؤ على مواجهة الزبون بخواطرها غير السارة بشأنه.. لكن فعلا ما الفارق بين شارع أوسبورن الذي كانا به وشارع (باكز رو) ١٠ الذي يقودها إليه؟!

لا شيء على الإطلاق؛ فكلها شوارع قذرة مُعتمة يُخيم عليها الفقر والعفن، وتسير في شوارعها مخلوقات ذات وجوه كالحة لا يعنيها سوى

كيف توفر لنفسها عشاء كافيًا وسريرًا تأوي إليه آخر الليل المتعب المرهق الطويل.. لكن يبدو أن السيد كان له هدفا عجزت عن إدراكه ولم يكن يعنيها ذلك كثيرا في الحقيقة.. المهم أن تحصل على أجرتها.. وهذا ما سيحصل بالضبط.. فهي ستحصل على أجرتها، وستكون الأجرة المناسبة تمامًا!

من بعيد كانت الفتاة الصغيرة تتبعهما لترى أين تذهب المحسنة الطيبة.. كانت "هدويج»، التي تربت جيدا رغم كل شيء، راغبة في إسداء الشكر لمن أحسنت إليها.. عزمت على مغادرة الزقاق الليلة، والعودة إلى أمها بما تحمله في صرة "بولي" الصغيرة الثمينة، لكنها لم تشأ أن تغادر دون أن تمنح شكرها الصغير لتلك السيدة التي لا زالت تحتفظ في قرارة نفسها الملوثة ببعض الإنسانية.. لكن البغيّ العجوز لم تمهلها الوقت الكافي لتعبر عن امتنانها، ولذلك فقد تبعتها عبر الشوارع لتشكرها كما يجب.. لكنها وجدتها تغادر برفقة ذلك الشخص الغامض المتسربل بالظلام، فأثار هذا دهشتها وقررت أن تتبعهما.. وليتها لم تفعل!

*****

لم يكد الاثنان يدلفان إلى داخل الشارع حتى خلع السيد ردائه المزيف ليكشف عن وجهٍ حقيقي تحته، وجه لم يُتَحْ لـ "بولي»، لحسن حظها، التمعن فيه طويلاً.. إذا سرعان ما أنقض على رقبتها ولف حولها قبضتين من فولاذ عاصرًا روحها خانقا إياها.. ذعرت "بولي»، "ماري "رغم أنفها، ولم تفهم ما يحصل معها.. مدت يدين يائستين تدفع العدوان عن نفسها لكنها لم تنجح في دفعه ولا في تخليص نفسها منه.. حاولت الصراخ لكن قبضتيه الملتفتين حول عنقها كتمتا صوتها كما كتمتا تنفسها.. لم تصمد إلا لحظات ثم تهاوت بين ذراعيه ميتة!

لم تكن تلك هي نهاية الليلة.. بل مجرد بداية.. وقد شهدت الدقائق التالية على حدوث طفرة في الجنس البشري.. طفرة سيئة نحو الجنون الكامل والوحشية التي لا مثال لها!

فلم يكتفِ المعتدي بإزهاق روح المُومس الكهلة بل استل خنجرًا ماضيًا من سترته الأنيقة وجز رقبتها من الأذن حتى الأذن.. ثم بدأ يطعنها في بطنها عدة طعنات نافذة بالغة الوحشية.. اثنتي عشرة طعنة كانت كافية لفثأ غضب القاتل وإفراغ حقده ولا أقل!

أسندها للجدار وتركها ليعثر عليها أحدهم، أو لا يعثر أبدا.. فلم يعد الأمر يعنيه أصلا! يكفيه فقط أنه ألحق الأذى بإحداهن وأخذ جزءًا، جزءًا واحدا فقط، من ثأره لديهن.. لكن ما ذنب المومس العجوز وما الذي أفاده المعتدي مما فعله ذلك ما ليس مهما أبدًا أن نعرفه!

وفي ركن مظلم وقفت "هيدويج" كاتمة فمها بيدها لتمنع نفسها من الصراخ.. لكن جسدها كلها كان ينتقض ويتفصد عرقًا كريه الرائحة.. تركته يقطع من أحسنت إليها ولاذت بالفرار مبتعدة محاذرة أن يسمع صوت قدميها المرتعشتين وهما تدبان على أرضية الزقاق المكسوة بالقذارة والمليئة بالماء الآسن!

كانت تلك أول ليلة ترى فيها الفتاة الرعب المقدر لها أن تعاني منه أشهرا طويلة فيما بعد!

(٤)

بخطوات وئيدة على ذلك الطريق.. كانت الساعة في حدود الثالثة وأربعون دقيقة صباحًا، وكان الصباح المبكر ضبابيًّا مغبشًا وتلك الطرق غير المخفورة تعج بالساقطات واللصوص والمتنمِّرين.. ورغم أنه تعوَّد السير صباح كل يوم، منذ أمد طويل، من هذا الطريق تحديدًا وحفظ كافة المشاهد التي تتراءى للمار به على الجانبين إلا أن هذا الصباح من يوم الجمعة الحادي والثلاثين من أغسطس حمل لسائق الحنطور الرقيق الحال "تشارلز كروس" مفاجأة مذهلة ومنظرًا غير مألوف له على الإطلاق عليه أن يكون هو شاهده الأول، وأول من يراه، في ذلك الصبح الذي لن تظهر نهايته بسهولة.. فقد وجد جسدًا مكومًا ملقي بجوار الجدار!

كان يبدو من حجم الجسد ووضعيته وملابسه أنه يعود لامرأة.. لكن أية

امرأة تكون تلك المتهاوية هنا؟!

ذلك ما لم يفكر فيه الحوذي وهو ينحني على الجسد ليجسه.. كان دافئا لكن لا حركة واحدة تصدر عنه وتنم عن وجود حياة به! أيكون قد تورط في أمر خطر دون قصد؟!

لا.. ليست تلك مهمته.. إنه حوذي يقود العربات ويفرقع بسوطه فوق ظهور الجياد المرهقة لتغذ السير، وينقل السادة المتأنقين والسيدات المتحليات بالحلي والمتعطرات أينما شاءوا، ويأخذ أجرته ويعود إلى منزله ليبقى وسط أبنائه.. لكن تحديد حالة الأجساد الدافئة الملقاة بجوار الجدران في بواكير الصباح هي من أعمال الشرطة حتما.. وليس من أعمال سائقي العربات!

وبالمصادفة المدبرة بعناية عبر حوذي آخر، "روبرت بول»، في تلك اللحظة وشاهد زميله منحنيا على جسد امرأة يتفحصه.. أوقف "بول" عربته وترجل منها وتوجه نحو المشهد الغريب:

"ماذا يحدث هنا؟! «

دون أن يرفع رأسه أجاب "تشارلز" وهو مستمر في تفحص الجثة

الممددة أمامه:

"أعتقد أنها ميتة! "

كانت ملابس "بولي "مرفوعة وأسفل جسدها عاريا.. سحب "بول

"تنورتها وسترها قبل أن يمس جلدها برفق ويقول متشككا:

"وربما تكون مجرد فاقدة الوعي.. أعتقد أنها أفرطت في الشراب

ففقدت صوابها.. إنها كما تبين لي أحداهن!"

لكن "تشارلز "هتف فورا:

"لا لا.. أعتقد أنها ميتة أنظر إلى رقبتها.. إنها مذبوحة وحنجرتها

مقطوعة! "

على أية حال فقد اتفق الرجلان على ألا يضيعا الوقت في الجدال، فليس

تحديد موتها من عدمه من اختصاصهما على أية حال، لذلك سرعان

ما اتفقا:

"هيا نستنجد بالشرطة!"

عثرا على الشرطي "جوناس ميزين" فأبلغاه بما عثرا عليه.. انطلق

برفقتهما وسرعان ما لحق به زميله "جون نيل"، تنحي الحوذيان،

وسرعان ما استقل كل منهما عربته وابتعدا، تاركين أمر السيدة الميتة، أو الفاقدة الوعي، للشرطيين المختصين..

وعلى ضوء فانوس "نيل" رأى الشرطيين حجم الإصابات القاتلة في جثة المرأة وقدَّرا أنها ميتة تماما.. في تلك اللحظة حضر شرطي ثالث، كما تجمع عدد من سكان شارع (وينثروب) المجاور، بعد أن تطايرت أنباء العثور على الجثة الممزقة، ليلقوا نظرة ويشاهدوا القتيلة قبل أن تجف دمائها، وتفوتهم أشد اللحظات إثارة.. من جانبه قام الشرطي الثالث "ثين" باستدعاء الجراح "ريس لويلين" لفحص الجثة.. وجاء الأخير وبعد فحص سريع أعلن أن المرأة لقيت نحْبها منذ نحو نصف الساعة.. أي أنها أسلمت الروح قبل عثور "كروس" عليها بعشر دقائق تقريبًا.. وربما.. ربما لا زال القاتل قريبًا أو لعله مندس بين المتفرجين المتحمسين الذين تدفقوا من الأحياء والشوارع الوضيعة المحيطة ليُمتعوا أعينهم بالمشاهدة والبحلقة في المرأة الميتة!

لكن الغريب هو قلة الدماء المراقة في مسرح الجريمة.. مع كل تلك الجروح الغائرة النازفة، متضمنة الذبح وشق الحنجرة الكلي مرتين،

كان يجب أن تكون هناك بحيرة من الدماء تغطي كل شيء.. لكن كمية الدماء كانت صغيرة مما دعا الجراح المتمرس لافتراض أن السيدة لم تقتل هنا.. بل قتلت في موضع آخر ثم حُملت وألقيت هنا للتمويه والتضليل أو لسبب لا يعلمه إلا الله!

لكن مهما يكن الأمر فقد تم حمل الجثة إلى المشرحة لتتم معاينتها بطريقة أوضح وأفضل.. ورافقها في طريقها الوعر الملوث بالدم تمنيات الجميع بأن تكون جريمة عارضة بلا معنى ولن تتكرر ثانية.. لكن أماني وتضرعات الجميع لم يقدر لها أن تُجاب أو تلبي!

*****

تكورت فوق فراشها مرتعشة مرتعدة، وغُصَّة هائلة في حلقها، وتمد فرعها الآخر داخل صدرها الضيق، كاتمة تنفسها تقريبًا، ومجبرة إياها على التقاط أنفاس سريعة قصيرة متقطعة.. كانت قد عادت إلى بينها مهرولة وألقت بصُرة المال الصغيرة إلى أمها وهي ترتجف، ثم هرولت ناحية فراشها الصغير وغطت نفسها ببطانية متهرئة قديمة ترتجف

كورقة.. اقتربت منها الأم المتألمة لحال ابنتها وما آلت إليه في النهاية ووضعت يدها على كتفها وسألتها برفق وبصوت حزين:

"صغيرتي.. هل أساء إليك أحد أولئك الزبائن؟! "

ماذا يعني هذا السؤال؟.. هل الأم قادرة على حماية ابنتها وهل تتحمل أن تمنعها من النزول للشوارع ثانية؟!

لكن تلك المرة لم ترد "هيدويج" ولم تشكُ؛ فقط ظلت ترتعش بعنف.. تنهدت الأم بصوت محترق وسألت الفتاة:

"هل أنت جائعة؟! تعالي لتأكلي قليلا من الخبز والجبن يا ابنتي!"

لم تجب الفتاة ولم تتوقف عن الارتعاد.. فرفعت الأم طرف البطانية ونظرت إلى وجه ابنتها الشاحب، الذي تبدو عليه علامات الذعر، في ضوء المصباح الواهن الموشك على الانطفاء لنفاد الفحم:

"هل أنت بخير يا فتاتي.. هل أنت مريضة؟! أتحبين أن نذهب إلى المستشفى؟!"

لا.. يجب أن تتحامل الفتاة على نفسها وإلا أوقعت نفسها في موقف بالغ السوء وتعرضت لاستجواب شنيع وسيعرف القاتل حتما أنها رأته:

"لا لا لست مريضة.. أنا أشعر بالبرد فقط وسأكون بخير خلال لحظة..

كلي أنت وأطعمي أخوتي؛ لقد أكلت قليلا في الحانة! "

كانت الفتاة تكذب.. وكانت الأم تدرك ذلك لكن الفقر والعوز علماها كيف تكون قاسية أحيانا، عند اللزوم، لأنها لو استسلمت لمشاعرها لحظة واحدة فلن تجد، هي وأطفالها، اللقمة في اللحظة التالية.. لذلك تركت الفتاة وشأنها لترمم نفسها بنفسها..

وتحت الغطاء المتهرئ عاودت "هيدويج" التفكير في كافة المناظر البشعة التي وقعت عيناها عليها منذ لحظات، وداهمتها مخاوفها المهولة.. إنها لم تشهد موت من أحسنت إليها فقط، بل رأت القاتل، وشاهدت لمحة سريعة له وبإمكانها، إذا عصرت ذهنها، أن تتذكر ملامحه وترسم، في عينيها المغلقتين، صورة تقريبية تشبهه كثيرًا، إن لم تكن هي صورته الحقيقية الكاملة المطابقة!

وما العمل الآن؟!

ليس لها إلا أن تبتعد.. أن تلوذ بالصمت.. أن تخرس تماما، وتتصرف وكأنها لم ترَ شيئا، لا ولا تعرف أي شيء.. فلتخرج إلى العمل مزودة

بلجام حديدي تطبق به على فمها.. فهي لم ترَ ولم تسمع شيئا، ولا تعرف شيئا.. ولتتذكر ذلك جيدا!

لكن المهم في الأمر أن "هيدويج" كانت تدير الأمر في رأسها الصغير تحت وهم راسخ لديها أنها هي وحدها من رأت القاتل.. لكن ماذا لو عرفت أنه رآها وفطن لوجودها كذلك، وأنه سمع وقع خطواتها على أرضية الزقاق.. وأنه، أيضا، كون صورة تقريبية، شبيهة بها إلى حد كبير.. وأنه قادر الآن على التعرف عليها؟!

ماذا كانت الفتاة ستقول أو ستفعل لو عرفت بذلك.. وعرفت أنها قد تجد نفسها بين ذارعي القاتل نفسه في حين قريب!

(٥)

حين عاد لمنزله ذلك المساء كانت منتشيا بإحساس مغاير تماما لما كان يشعر به الليلة الماضية.. لقد حصل على انتقامه؛ فافرحي يا أماه! يا من تنتظرينني في السماء لتمسكين بيدي وتقودينني إلى الفردوس!

لكن أمه لم تستجب لندائه ولم تحضر لتقوده إلى الفردوس.. وفي الأغلب فهي لن تأتي أبدا لتفعل، ولا هو سيدخل إلى الفردوس، فلم يفعل شيئا في حياته يجعله مستحقا له.. لكنه يؤمن بأنه الآن فقط يفعل!

إنه يخلص وطنه من الطاعون.. من الأجساد الحاملة للموت والجراثيم والهلاك.. من أولئك الساقطات العفنات المستحقات لكل احتقار ومهانة!

لقد انطلق قطاره وما من أحد قادر على إيقافه أو عرقلة اندفاعاته الهائلة المباركة.. لذلك، وبسبب هذا الإحساس بالبطولة، انتظر صدور جرائد السبت على أحر من الجمر.. ستصبح فعلته شغل لندن الشاغل،

وسيشكره الجميع عليها ويباركونه في سرهم أو في جهرهم.. حتى وإن كانوا لا يعرفون من يكون!

وصدرت صحف السبت الأول من شهر سبتمبر لعام 1888م وكانت حافلة حقا.. صور فظيعة وتفاصيل أفظع لجريمة قتل (باكز رو) المروعة التي وقعت ليلة الجمعة.. الصور بمفردها كانت مذهلة ومخيفة، إن نشر الصور بهذه الطريقة المفرطة يدل على شيء واحد.. ليس السفاح وحده هو المصاب بالسادية بل لعل السادة الصحفيين الأجلاء أكثر منه سادية وتعطشًا للدماء!

لكن هدف الصحف تحقق.. فلقد أثيرت المخاوف الهائلة في أرجاء مدينة لندن، خاصة في أوساط المقيمين في (وايتشابل) والعاهرات على وجه أخص.. لكن ليذهب الجميع إلى الجحيم.. فأين أخبار ما قام به هو؟!

لا كلمة، لا خبر، ولا صورة واحدة.. لقد خنقها بيديه وسمع حشرجتها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة وتركها تحتضر خلفه وهرب.. لكن أين هي.. أين ذهبت؟!

لوى الجريدة بين يديه بغلٍّ.. ثم أفرغ ما تبقى من غضب لديه فيها وأخذ يمزقها ويهرسها بأسنانه وأصابعه حتى حوله إلى كومة مزق.. ألقاها أرضا وأخذ يدوسها برجليه!

خرج من البيت مندفعًا كالصاروخ وتوجه إلى بائع الصحف الذي اعتاد التعامل معه.. كان الرجل معتادًا أن زبونه هذا لا يشتري يوميا إلا نسخة واحدة من جريدة (الديلي تليجراف) صباحا ولا يشتري شيئا سواها، ولا تقع عينه عليه ثانية إلا صباح اليوم التالي ليبتاع نسخة واحدة أخرى من جريدته المفضلة وهكذا دواليك.. لذلك كانت عودته المفاجئة على تلك الصورة، وهو في هذه الحالة من الاضطراب، مثيرة للدهشة والارتياب.. لكن الأخير لم يبالِ:

"أعطني نسخة من (نورثرن ستار) من فضلك!"

نظر البائع إلى وجه زبونه المعتاد وقال له ممازحا:

"كلهم متشابهين.. وفر نقودك.. فالفتاة ممددة على الأرض في جميعهم!"

كان البائع يقصد بالطبع جريمة "ماري آن نيكولز" وصور جثتها التي

غمرت الصحف الصادرة اليوم.. لكن لم يكن هذا الذي يريد سماعه!

"أعطني نسخة من أية جريدة أخرى من فضلك!"

هتف الزبون وهو يرتعش غضبا لكن بائع الجرائد الظريف أمعن في مزاحه قائلا:

"هل لديك بنسات كثيرة زائدة.. مومس حية أفضل من تلك الميتة! إن الحي مكتظ بهن.."

كان الفتي النحيل، المصاب بالسل كما يبدو، سيواصل لكن الزبون الغاضب، غير المستعد تمامًا لسماع شيء من كل هذه السخافات، صرخ فيه وقد أحمر وجهه وبدأ العرق يتفصَّد من جبينه:

"قلت لك أعطني نسخة من جريدة أخرى.. عليك اللعنة!"

أغمق وجه البائع المراهق وتناول نسخة من (التايمز) ودفعها صامتا ليدي الزبون الغاضب فنقده الأخير ثمنها، وفرّ من أمامه كما يفر المذعور من الأسد وهرع مبتعدا وهو يقلب صفحات الجريدة الداخلية بلهفة..

لا شيء..

لا شيء..

صور.. صور..

أخبار. أخبار

جريمة "باكز رو"..

جريمة "باكز رو"

لا شيء عنه..

لا شيء عما فعله!

ولا كلمة واحدة عن المومس التي قصف عنقها بالأمس وخنقها حتى الموت!

كان يسير وسط الجموع المندفعة في (بودينج لين) ١١ بوجه محمر منتفخ وبملامح متحفزة مجنونة.. عبر الشارع المزدحم بالسابلة ثم مضى قاطعا جسر لندن وهو يمُور من الغيظ.. كل الصحف خاوية!

إنهم يتآمرون عليه.. إنهم يخفون إنجازه عمدا ويودون حرمانه من أوسمة الشرف التي يستحقها في أذهان الناس وفي قلوبهم! لكنه لن يستسلم.. ليس لأنه بالغ الشجاعة.. بل لأنه لا يملك وقتا كافيا ليمارس

فيه ترف اليأس والاستسلام! يجب أن يحصل على أوسمته ودرجات شرفه قبل أن يصرعه الزهري!

*****

كانت أخبار الجريمة المروعة التي راحت ضحيتها المومس الأربعينية قد هزت مدينة (لندن) هزا.. ليس لندن وحدها في الحقيقة، بل الأمة بأسرها قد ارتجت لتلك الحادثة المروعة، مع إن تلك المرة لم تكن المرة الأولي في الواقع ولن تكون! فكم تعرضت تلك الفئة من النساء، اللائي لا بواكي لهن، لحوادث اعتداء وضرب وحشي وقتل في أحيان كثيرة دون أن يأبهَ بهن أحد.. ويوم الأحد الثالث من أبريل من نفس العام ليس بعيدا على أية حال، ولا حادثة موت "إما سميث» ١٢، التي لم يوجه فيها اتهام لأحد ولا أهْتُم بتعقب قاتلها والبحث عنه، ببعيدة كذلك.. لكن موت السيدة "نيكولز" كان مختلفا على أية حال.. موت عنيف ووحشي في عرض الطريق وفي وسط حي مزدحم بالأنفس التي يهلكها الجوع ويشقيها الحصول على كسرة خبز.. والبركة في الصحافة!

فعلى عكس قصة "إما سميث»، فقد اهتمت الصحف غاية الاهتمام بموت "نيكولز" وأقامت الدنيا وأقعدتها.. ليس لأن المرأة القتيلة قد حظيت بعطف السادة ذوي الياقات البيضاء العاملين بتلك الصحف، بل لأن تلك الذبيحة البشرية قد أضحت موردا مهما لزيادة التوزيع، ومصدرا للكسب لهم.. فقد زيدت النسخ المطبوعة من تلك الصحف الكبيرة منها والطيارة، لأكثر من الضعفين، وباستغلال موتها وآلامها وجسدها الممزق، بالصور، وجد أولئك السادة المتأنقون حدثًا يشغلهم ويشغلون به الجماهير لأيام وأيام متتالية.. وهكذا تصدرت صور تلك المرأة الميتة، التي لم يهتم أحد كيف عاشت ولا كيف قضت أيامها الطويلة المشبعة بالعوز والفقر والمهانة، عناوين مانشيتات الأخبار وأصبح اسمها المنكور، والذي ظل منكورًا طويلاً، علامة مسجلة ووسيلة لزيادة التوزيع وزيادة الأرباح والمكاسب!

"أقرأ عن قصة جريمة حي وايتشابل.. القتيلة تعترف!»

كانت بعض الصحف الصفراء الرخيصة قد استغلت حادثة الموت العنيفة تلك في الترويج لنفسها عبر سلسلة من المقالات عن حياة المومسات في

(وايتشابل) وأحياء لندن الأخرى كافة.. كان هدف تلك المقالات المعلن هو إيقاف الجماهير على أوضاع تلك الفئة من نساء الأمة الإنجليزية العظيمة، وتعريف الرأي العام بمعاناتهن ومتاعبهن غير المنتهية من أجل الحصول على لقمة العيش.. لكن الحقيقة أن تلك الحفنة من المقالات قد أضحت وسيلة لجذب الجماهير، خاصة الرجال منهم، لموضوعاتها وأعدادها المتعاقبة عن طريق الإثارة الرخيصة وعرض صور غير لائقة لبعض أولئك الساقطات حتى بدت تلك الصحيفة في النهاية وكأنها تروج للبغاء وتقوم بالدعاية للساقطات وليس العكس! لكن، وبغض النظر عن كل ذلك، فإن القلق تسلل حتى وصل إلى قمة الهرم للأمة البريطانية.. إلى قصر باكينجهام نفسه وإلي قلب الملكة العظيمة "فيكتوريا»!

*****

لم تكن قصة الجريمة هي ما يقلق الملكة العجوز الجدة بالطبع، وهي لم تسمع عنها غالبا، ولعلها لا تعرف أصلا أن هناك من بين رعاياها من تحمل اسم "ماري آن نيكولز».. لكن حفيدها الأمير "ألبرت» ١٣ قد

أصبح غريبا جدا تلك الأيام!

لم تعرف ماذا أصابه بالضبط، لكن برغم لهفتها لمعرفة سبب تغير الشاب الخطر فإنها أصمت أذنيها الملكيتين عن سماع تلك الأقاويل السخيفة التي حاول البعض إيصالها إلى أسماع الملكة ولكنها أبت أن تنصت لها.. فيقال أن الأمير ووارث العرش على علاقة آثمة بفتاة ساقطة وضيعة في حي ممتلئ بصنفها يسمى (وايتشابل)!

أهذا معقول!!.. لا طبعًا!! إنها وشاية حقيرة لا يجب أن تجابه سوى بالصمت والإعراض والتصرف كأنها لم تسمعها.. لكن ذلك لن يغير من الأمر شيء، فجلالتها قد سمعت بذلك بالفعل.. تناهى إلى أسماعها الأقاويل المتبادلة خلف الأستار الرقيقة، وتعمد البعض إيصال شائعات أخرى مماثلة، ولعلها أكثر سخفًا، لها.. وفي كل الحالات فكيف يمكن التصرف إزاء مثل تلك النوعية من الأخطار غير المتوقعة التي يمكن أن تحيق بسمعة الأسرة الحاكمة العريقة وبسمعة أبناء وأحفاد جدة أوربا العجوز! أيستدعي الأمر مزيدا من التجاهل.. أم يلزمه وقفة حازمة مع الدوق العابث الذي تنطلق حوله الشائعات الخطرة دون أن يبالي بها؟!

حرب بوير ١٤ أخرى لكنها في قصرها تلك المرة؟!

يا للصدر الضائق المعتل العجوز!

في غرفة خاصة، لا تسمح لأحد بالدخول إليها سواها، كانت مضطربة وهذا كان نادرا.. فتلك المرأة القوية، التي لا تتمتع بالضعف ولا تحبه، فكرت قليلا فيما يعرض لها من مشكلات.. لم تكن مشكلة سياسية أو إدارية عادية تؤرق أعظم أمة في العالم، أو حربا اشتبكت فيها الدولة الاستعمارية العظمي وعليها هي، كملكة وحاكمة، تحمل نتائجها وحمل أوزارها نصرا كانت نهايتها أم هزيمة.. لكنه كان مأزقا مخيفا يؤرق المرأة الصلبة العظيمة، إنها مصيبة تهدد سمعة العائلة المالكة بأسرها، بل وقد تهدد استمرارها في الحكم.. فماذا لو وصلت الفضيحة إلى أعنة الصحف المولعة بالولوغ في سمعة الأسرة العظيمة!

تصور!

عائلة "فيلف» ١٥ العظيمة معرضة للفضيحة والسقوط بسبب أفعال غلام عابث، ليس على المستوى المطلوب من المسئولية؟! تصور يا هذا إن كنت قادرا على تحمل تلك الفرضية البشعة والتخيلات السقيمة! لكن

لا.. يجب أن يوضع حد لذلك الأمر والآن!

لن تحادث الأمير فلا فائدة تُرجى من محادثته.. ولا يمكنها بأي حال من الأحوال السماح لنفسها بالدخول في مناقشة مباشرة مع حفيدها حول مثل هذا الأمر، لأن هذا يضع الأمور في نصاب خاطئ ويجعله أمرا اعتياديا قابلاً للمناقشة بشأنه.. بينما العقل يقول إن الأمير يجب أن يعلم، في قرارة نفسه، أن ما فعله كان بشعا لدرجة أن رأس الأسرة المالكة تتجنب مناقشته معه، لأنه ليس مقبول حتى النقاش فيه ووضعه على منضدة مباحثات عائلية ملكية.. إذن فكيف يكون التصرف السليم؟!

سيكون التفكير بشأن التصرف السليم وإيجاده وتنفيذه أمرا يخص "جاسكوين» ١٦ ولا يخصها هي.. لأنها لا تسمح لنفسها بمجرد التفكير في الأمر أو مناقشته أو البحث عن حلول ملائمة له!

تلك هي الطريقة التي يجب أن يُعامل بها هذا الأمر وليس هناك طريقة بديلة أبدا!

*****

أُرسِل في استدعاء "روبرت جاسكوين سيسل" فحضر على الفور.. قيل له إن ملكته تطلبه لأمر عادي وتبدي رغبتها في حضوره للمداولة معه بشأنه!

حضر رئيس الوزراء وتقدمته وصيفة خاصة للملكة إلى غرفتها الخاصة وقادته إلى هناك.. فتحت له الباب وتركته يمرق عبره ثم سحبت الباب خلفها ببطء ووقار لتتيح لمليكتها حرية الانفراد بأهم رجل في الإمبراطورية المشمسة دومًا وأكثرهم خطورة!

تقدم السير "روبرت" بهدوء فمدت له الملكة يدها البضة، تناولها وانحنى مقبلا إياها بلباقة وأناقة.. لكنه لاحظ أن اليد شاحبة وباردة قليلا فأجفل.. كان السير "روبرت جاسكوين سيسل" لديه حساسية مزمنة تجاه أي أمر يمكن أن يعكر مزاج ملكته التي كان شديد الإخلاص لها، ومستعدا لخدمتها حتى الموت!

لكن الملكة لم تكن تفكر في الموت في تلك اللحظة.. بل كانت الحياة هي جل اهتمامها، الحياة المكرمة التي اعتادت عليها، ملكة عظيمة مكرمة مُتوجة يُعظمها شعبها ويُجلها ويحترمها، ويتقبل الملوك ودها شاعرين

بالمنَّة منها، ويقدم لها العالم بأسره، الطاعة والخضوع.. أيضيع كل ذلك في غمضة عين وبسبب غلام عابث صغير غير جدير بالمسئولية، ولا يُحسن استغلال الفرص المتوفرة له لرفع اسم العائلة وإضفاء المزيد من التبجيل والاحترام لاسمها..

أحس "جاسكوين" بما يدور في خُلد الملكة من خواطر غير محببة، إنه يشعر بما يعتمل في نفسها وإن كان لا يعرف السبب المباشر.. لكنه على أية حال سمح لنفسه بالتخمين:

"""جاسكوين»!

"سيدتي!»

أجاب وهو لا يزال واقفا أمام مليكته التي لم تأذن له بالجلوس بعد:

"إنني غير سعيدة يا سير "روبرت «!

نظر السير إليها من عل وهو واقف وتأمل وجهها المستدير الناعم وهتف مداريا مشاعره الحقيقية:

"إذن فلا فائدة ترجى من وجود "روبرت جاسكوين" في الحياة إذا كان غير قادر على دفع الحزن بعيدا عن باب ملكته المبجلة!»

راقها جوابه، كما هي العادة دائما، خاصة لأنه كشف عن استعداده التام للقيام بأي شيء تطلبه منه والقيام بخدمتها كيفما تشاء:

"إنه دوق "كلارنس" يا ماركيز "سالسبوري» ١٧

آه.. لقد خمن هذا!

ساد الصمت بينهما لحظات طويلة.. ثم نظرت الملكة إلى رئيس حكومتها الملكية نظرة واضحة ولفظت كلماتها ببطء وتوكيد:

"أنه الأمر!»

نظر إليها متوجسا، لكنه فهم مقصدها خلال أقل من ثانية.. إذن فقد تعلق الأمر في رقبته.. لا بأس إذن يا "جاسكوين" نصرٌ آخر تدفع ثمنه إن لزم وخذه مجانًا إن استطعت!

"فليكن!»

رد بصلابة فرمقته مدارية امتنانها العميق:

"أتفعل؟! «

"نعم.. سيدتي! ولكن ما هي وسائل إنهاء الأمر في رأي مولاتي؟! «

ستخيب ظني يا "جاسكوين" حسبما يظهر.. فتراجع خطوة للخلف يا

رجل لتحتفظ بموقع قدميك ثابتا!

رفعت يدها معترضة وقالت بصرامة:

"لن أقدم أية مقترحاتك هنا.. ليس لدي إلا مقترح واحد: أنهِ الأمر كيفما شئت!»

"فهمت.. فلتعتبره سيدتي منتهيا!»

ابتسمت وأظهرت ثقتها به:

"منذ صباح اليوم؟!»

سألت.. فأجاب معززا جدارته بخدمة صاحبة الجلالة:

"بل منذ مساء أمس!»

جميل.. شكرا لك يا "جاسكوين»!

لن تتفوه بالشكر بلسانها لكن عيناها كانتا محملتين به:

"جاسكوين؟!»

"سيدتي!»

"إنني أمنحك ثقتي (ومدت له يدها المغطاة بقفاز أبيض وأردفت) فدعني أفتخر بصواب رأيي!»

أنحنى مقبلا يدها:

"ستفتخرين يا سيدتي.. ستفتخرين وتنامين على وسادتك وأنت تعرفين أن هناك خادما يدعى "روبرت سيسل" يحرسك بعينيه ويقدم لك روحه بسعادة ورضا!»

خرج رئيس الوزراء من حضرة صاحبة الجلالة ممتلئا بالعزم والإصرار على تنفيذ ما طلبته السيدة العظمى مهما كلفه الأمر.. وكان هذا من سوء حفنة من النسوة الغافلات الميتات بالحياة!

*****

ليلة الأحد تحتم على "هيدويج" أن تغادر فراشها.. كانت قد أمضت ثمانية وأربعين ساعة ترتجف وترتعش في بردها، كانت الأم قد شكت في أن تكون ابنتها قد أصيبت بنزلة برد، لكن حتى على افتراض أنها كذلك بالفعل، فلا محيص عن نزول الفتاة إلى الشوارع لاصطياد زبائن وجلب شلنات للبيت.. فبنسات المومس العجوز القتيلة، التي لم تكن الأم تعرف شيئا عنها أو عن قصة ابنتها معها، لن تصمد ولن تسد رمق البطون

الضامرة الجائعة طويلاً.. وكانت الفتاة تعرف ذلك، ورغم الرعب الذي لا زال يسيطر عليها، والذعر الذي ينهش عروقها فقد حقنت نفسها بجرعة من مضادات الجبن ومُوقظات الإحساس بالواقعية والرضوخ لما يتهددهم من جوع وفاقة مستمرة إن هي استسلمت للرعب الآخذ بتلابيبها، وارتدت ثيابها ونزلت إلى الشوارع.. لكنها لم تكد تجد نفسها على مقربة من (باكز رو) حتى عاودتها حالة الذعر وأخذت تتلفت حولها وتدير رأسها في كل ناحية، متوقعة أن السفاح يكمن مترصدا إياها، ومنتهزا فرصة سانحة للانقضاض عليها رغم أن المساء لا زال مبكرا والحي مزدحم حولها بالسابلة والمارة وبنات الهوى النشيطات اللائي قررن الذهاب إلى العمل مبكرا..

عثرت على صديقتها "سيسلي" فوقفت قليلا لتحادثها.. كانت "سيسلي" تتأبط ذراع رجل فارع القوام يرتدي سترة بيضاء وسروالا أسود انسلت بعض خيوطه وبهتت أطرافه، لكنه كان يبدو جيدا كزبون على أية حال.. لم تكن أحوال "هيدويج" جيدة كما بدا لرفيقتها التي لا تكبرها إلا ببضعة أشهر فسألتها وهي تتمسك بذراع الصيد الذي وقعت

عليه:

"هل من شيء يا "هيدي».. هل تحتاجين مساعدة؟!»

الغريبة أن "هيدويج" قد اكتشفت أن هناك قدرا من الإنسانية والرغبة في تقديم المساعدة وإسداء النصح للغير لدى تلك الفئة (الضالة) من النسوة أكثر بكثير مما لدى السيدات والفتيات المحترمات سليلات البيوت المصونة وصاحبات العفة والصون.. والسبب في ذلك، كما يبدو، أن الأخريات اللائي يعشن عيشة رضية، أو معقولة، ولا يحتجن لبذل كرامتهن وحياءهن والتسكع في الشوارع وامتهان أنفسهن من أجل كسب لقمة العيش، يعانين الضجر والسأم، ولا وسيلة لديهن لتزجية ذلك الوقت الطويل الممل سوى باختلاق الخلافات والخصومات التافهة، والتفنن في تسويد عيش بعضهن، أو عيش الآخرين، والتسبب في إيذاء الآخرين بغية الشعور بالقوة أو لمداراة ما يعانينهن من نقص وكبت وعقد نفسية لا نهاية لها.. أما من هن على شاكلة "هيدويج" و"سيسلي" فقد كتب عليهن للأسف أن يخبرن الحياة ويرين وجهها القبيح التعيس وحده.. لقد رأين الحياة عارية قبيحة عجوز مقرفة بطاقم أسنان تصبغ شعرها

وتلوك اللادن وتلون أظافرها بالألوان الفاقعة وتطلي وجهها بالمساحيق متظاهرة بأنها شابة ناضرة.. لقد رأين كل ما هو قبيح، وفاسد، وعطن، ومتعفن، فلم يعد بهن حاجة إلى المزيد من العفونة والقبح، ولا وقت لديهن لتبادل الكراهية وإفشاء الخصومة والثأر.. حتى الصراع الذي قد ينشب أحيانا بين فتاتين من هذا النوع على زبون، أو قطعة نقود، فلا يحدث أبدا أن يتطور إلى خصام حقيقي ونزاع وحشي.. فالزبون يعني شلنا والشلن يعني زبونا، وكليهما، الشلن والزبون يمكن تعويضهما وبسرعة.. أما الصديقة التي تقتطع جزءا من ردائها لتطبب جرحك وتغطيه وتضمده إذا ما اعتدى عليك زبون مجنون، أو غاضب، أو سادي، فلا يمكن تعويضها أو استبدالها من المصرف.. ولذلك كانت "سيسلي" على استعداد للتفريط في الزبون المتاح الآن، وفورا، إذا ما أبدت رفيقتها ذات العينين الحزينتين أدنى رغبة في الإفصاح عن متاعبها والبكاء على صدرها..

لكن "هيدويج" لم تكن بها رغبة لا في الإفصاح ولا في البكاء على صدر أحد.. فماذا تقول لصديقتها بالضبط؟!

أتقول لها إنها رأت قاتل "بولي" وإنها، كما تظن على الأقل، تحفظ جزءًا لا بأس به من ملامحه، وإنه يمكنها أن تتعرف عليه، إذا ما عُرض أمامها ثانية، ولو بقليل من الجهد؟!

لا هذا كلام لا معنى له ومن الخطر جدا جدا قوله أو ترديده!

قد يدفع هذا القاتل لمطاردتها والإجهاز عليها:

"إنني بخير!»

كان هذا هو الرد الوحيد الذي تمتلكه "هيدويج" والمسموح لها بقوله.. لم تعلق الفتاة الصغيرة الأخرى ونظرتها بود قبل أن تنصرف برفقة الزبون ذي السروال المنسل الخيوط تاركة "هيدويج" تقتفي أثر خطاها السابقة عائدة إلى بيت قوادها علها تعثر على زبون مناسب هناك.. لكن الزبون كان موجودا بالفعل بقربها ولا حاجة بها إلى الذهاب للبحث عنه! فقد انشقت الأرض بقربها مظهرة شابا حسن الملامح يرتدي ثيابا بسيطة نظيفة ويعرض خدماته.. كان يطلب خدماتها في الحقيقة ونظرت في وجهه الوسيم الكثيف الشعيرات للحظة.. قبل أن ينتفض بدنها كله! فقد ميزت في ملامحه تقاسيم وجه قاتل "بولي" ليلة الجمعة.. كادت

صرخة تفلت منها لكنها كتمت فاها سريعا وأخذت ترتجف كمصابة بالبرداء ١٨ قبل أن تشرع في الهروب من أمامه! كانت تضع شالها الأبيض شبه الممزق على كتفيها لكنه سقط منها وهي تجري هلعة مبتعدة.. فالتقطه الشاب المندهش ونظر بتعجب ناحية الفتاة اللائذة بالفرار أمامه وهتف وهو يقفوا أثرها ليعيد إليها شالها:

"فتاة مجنونة!»

وتلك كلمة ستسمعها "هيدويج" الصغيرة عدة مرات الليلة.. ولن تحظى بزبون واحد الليلة بطولها.. وحتى بزوغ الفجر.. ساعتها سيكون موعدها مع العميل المثالي والزبون الذي لا يمكن رفض تقديم الخدمة إليه أبدًا!

(٦)

بعد ساعة عادت "سيسلي" من رفقة الشاب الفارع.. كان يبدو عليها الرضا لكن ثمة خدش عميق وكدمة تحتل جزءا من صفحة وجهها اليُسرى.. فزعت "هيدويج" لمنظرها وجرت نحوها وسألتها بلهفة عما أصابها لكن الأولى لوحت بذراعها وقالت باستهانة:

"هذا لا شيء لقد أعطاني أجرا طيبا.. لكنه مجنون قليلا ومولع بأشياء غريبة!»

لم يكن هذا الأمر نادرا فأغلب الزبائن الذين يترددون على هذا الحي العفن إما أن يكونوا مجانين، أو في طريقهم ليصبحوا كذلك:

"كم بنسًا كسبت الليلة؟!»

سألت "سيسلي "صديقتها فهزت "هيدويج" رأسها:

"كم.. قليلا؟!»

هزت رأسها ثانية فاتسعت عينا "سيسلي" دهشة وتعجبا:

"ماذا.. ولا بنس واحد؟! لماذا؟!»

لم تجب "هيدويج" إذ لم يكن لديها سببا مقنعا أو عذرا مقبولا لتقدمه لصديقتها لكن لا بأس.. فقد اقترب منها شخص ما في تلك اللحظة وبدا أنه يقصدها هي تحديدا وليس واحدة غيرها!

أشاحت "هيدويج" برأسها بينما ابتسمت "سيسلي" للزبون المحتمل كاشفة عن أسنان جميلة نضيدة ولكزت رفيقتها بكوعها في جانبها لتنبهها.. وكان القادم جريئا فيما يبدو فقد مد ذراعا فولاذية وأطبق على ذراع "هيدويج" المكشوف!

فزعت الأخيرة ونظرت خلفها بسرعة لتجد رجلا طويلا نحيلا يتدلى سيجار رفيع من بين شفتيه وعلى رأسه قبعة أنيقة منحسرة عن مقدم رأسه ومتراجعة إلى الوراء، ومن جيب سترته الأنيقة تتدلى سلسلة ذهبية طويلة تقع في نهايتها قلادة مستديرة فيها صورة لوجه غير واضح الملامح.. كان الرجل ينظر إلى الفتاة، وهو لا يزال ممسكا بذراعها، بهدوء وإصرار:

"مرحبا!»

هتف بهدوء فتبخرت "سيسلي" من المكان لتتيح لرفيقتها فرصة الإنفراد بهذا الزبون علَّها تكسب شلنات كافية ذلك المساء الموشك على الانتهاء.. لكن ذلك المساء لم يكن مقدرا له الانتهاء أبدا!

دون أن ينتظر منها إشارة تدل على رضاها عن مرافقته سحبها من ذراعها، وهي مستسلمة له في يأس.. مبتعدا بها عن ذلك الجمع المتحرك من بائعات الهوى والزبائن والقوادين والعمال المهاجرين الباحثين عن بضاعة مُزْجاة، وهي متوفرة، هنا من النساء الرخيصات المتاحات لكل من ملك شلنين أو أكثر..

مضي ساحبا إياها بجواره حتى وصلا ركنًا مُنزويًا في شارع (هانبري) وهناك أوقفها وألصقها بالحائط.. أغمضت عينيها بشدة وتخيلت أصابعه وهي تطبق على عنقها وتخنقها وتزهق روحها، ثم يبدأ في تمزيقها ونحرها وحز رقبتها وتقطيع أوصالها كما فعل مع "بولي" المسكينة.. مرت لحظة وانتظرت لكن شيئا لم يحدث.. لقد ألصقها بالجدار وجرى كل شيء بشكل طبيعي وبعد دقائق كان يهمس لها سعيدا

سائلا إياها كم تريد!

ذهلت وفتحت عيناها.. كانت هناك دموع متحجرة في مآقيها وثمة رعب رابض في نظراتها لكنه بدأ ينقشع ويتبخر.. أدركت أنه ليس سوى زبون عادي، بل زبون سخي وكريم أيضا وها هو يسألها عما تود من أجر رغم أن أغلب الزبائن هنا لا يفعلون ذلك أبدا!

بصوت مبحوح، من أثر الرعب والذعر الذي لم يفارقها تماما بعد، قالت له:

"أعطني ما تريد!»

ويبدو أنه وجدها مستحقة لذلك لأنه نقدها دفعة سخية من الشلنات تقدر بنصف باوند!١٩

طبعا كان المبلغ أكبر مما توقعت، بل مما حلمت به، كثيرًا جدا.. ويبدو أن سحر النقود أنساها ما كانت تشعر به من ذُعر.. فابتسمت له ورفعت رأسها لتطاوله ثم أعطته قبلة صادقة كانت أحسن عنده من كل ما حظي به من صنف الساقطات أولئك طوال خمسة أعوام أمضاها متسكعا في تلك الأنحاء العفنة!

تركته وذهبت فبقي في مكانه يتحسس موضع القبلة على خده.. الغريب أنه شعر بالسعادة لتلك اللفتة النسائية البسيطة.. أكثر مما شعر وهو يمزق عنق تلك المومس اللعينة العجوز منذ بضعة أيام !

*****

مضت أيام قلائل وبدأت "هيدويج" في استعادة القليل من ثباتها، ليس بسبب التحسن في حالتها النفسية، قدر ما هو نتاج القهر والغصب.. إنها مجبرة على أن تتحمل، ومُلزمة بأن تخفي آلامها ومخاوفها وتتظاهر بأنها طبيعية، وتضع قناعا زائفا على وجهها البريء لتجذب الزبائن والعملاء.. يجب أن تفعل وإلا هلكت هي وأسرتها البائسة جوعا!

لكن الاضطراب غشي الحي كله في أعقاب اكتشاف جثة "ماري».. كانت تلك الجريمة التي بدت مجرد عنف وحشي آخر يُمارس نحو أولئك النسوة قليلات الحظ، اللائي يكرههن ويشمئز منهن الجميع، قد سُجلت في الأذهان كجريمة فردية لا مبرر، ولا تآمر يقف خلفها.. لكن بعض الحُصَفاء، الذين يتمتعون بذاكرة جيدة، أخذوا يبثون في خبث

ودهاء نظرية مُؤداها أن جريمة قتل "ماري" ليست اعتيادية ولا حادثة فردية.. وأخذ البعض يطنطن ذاكرا أسماء، نسيها الجميع وردموا على ذكراهن بالتراب، مثل "فيري فاي" و"آني ميلوود" و"إليزابيث سميث" و"مارثا تيبرام" و"كاري براون» ٢٠.. ولكن ما الذي يعنيه كل هذا؟!

إذا كانت الشرطة قد عجزت عن الكشف عن شخصية الفاعل في كل تلك الجرائم وفشلت في تحديده أو القبض عليه فكيف وبأي حق يروج أولئك المغرضون أن القاتل في كافة تلك الجرائم واحد؟

إن تلك الشائعة لخطيئة كبري في حق سلطات الأمن اللندنية العتيقة وفي حق السيد "فريدريك ابيرلين 21" كبير محققي سكوتلانديارد العظيم نفسه.. والشائعة خطورتها أنها لا ترمي بوليس لندن بالتقاعس فقط، بل تشير أيضًا إلى رائحة أخرى خفية غير مُحببة.. رائحة قذرة في الأمر كله!

لكن من قال إن السيد "إيبرلين" يبالي بكل هذا.. إنه لا يهتم، لا لأنه لا يبالي بما يقوله الناس، أو ما قد يقولونه، عنه والتهم الكريهة

التي قد تطفو حوله، ولكن لأنه يعرف أنه لا يملك شيئًا يفعله إزاء تلك الشائعات سوى إسكاتها بطريقتين.. فإما أن يثبت خطأها بالعمل الجاد حتى التوصل إلى ذلك المجرم القاتل الذي قطع عنق المومس الأربعينية منذ بضع أيام، وإما أن يتجاهلها.. وقد اختار أن يسلك الطريقين معًا مستفيدا من عزيمته القوية التي لا تلين واحتقاره الدفين، الذي لم يجرؤ على إعلانه أبدًا، لآراء الجماهير المكدسة في الأحياء العشوائية وأفكارهم الجهنمية الفذة!

والحق أن مستر "إيبرلين" لم يَأْلُ أبدا جهدا في البحث ومحاولة التوصل إلى شخصية القاتل الأثيم.. لكن لو أنه يملك شاهدًا.. شاهدًا واحد فقط رأى ملامح القاتل أو جزءًا منها ويقدم وصفًا ولو متوسطًا عنه!

لكن كيف يعمل وهو يتعامل مع شخص ملفوف بضباب ولا ضباب لندن نفسه؟!

*****

تربصت له منتظرة تلك المرة.. كان مرجل صبرها قد غلي حتى تبخر ماءه وانفجر في وجهها.. وكانت "سارة" مصرة على صبّ جام غضبها ويأسها على رأس "جاكوب" الليلة.. فليكن مجنونا أو مختلا أو معتوها

أو مصابا بالماخوليا، أو كيفما يسمون حالته العقلية المضطربة، لكن "سارة" لن تتحمل المزيد بعد.. لقد انتهى الأمر تماما ويجب وضع حد قاطع له الليلة!

عاد الزوج من الخارج مبكرًا قليلا.. كان عاري الرأس وقبعته القذرة متدلية من يده اليُسرى بينما يده اليمنى تقبض على فرو وثير كبير بني اللون يبدو فارغا.. كانت يدا الزوج داميتان وقذرتان وهناك نظرة جنون حقيقي تلوح في عينيه الذاهلتين.. وما إن وقع بصره على "سارة" حتى هتف بصوت غريب:

"سارة "عزيزتي.. أنظري بمَ جئت إليك؟! «

ثم رفع الفراء الفارغ وقربه من وجهه.. أشاحت "سارة" بوجهها مبتعدة عنه ثم ألقت نظرة خاطفة على ما يتدلى من يدي زوجها العاقل:

"ألم تكوني دائما ترغبين بامتلاك قط سيامي.. ها قد أتيت إليك بواحد!»

ثم أنشأ يضحك.. لم يكن ما يحمله في يديه قطا حقيقيا.. بل كان فراء قط فارغ يتدلى منه الرأس المذعور.. لقد قتل المختل قطا ونزع جلده

وسلخه وألقى بجسده بعيدا مبقيا على الرأس وحده متدليا من طرف الفراء الناعم.. حدقت "سارة" بعينين مذعورتين في وجه زوجها! إنها واثقة من أنه مختل وبه مسّ من الجنون، وليس هذا غريب عليه أو على عائلته التي توارثت الجنون طويلا٢٢، أو على أصواته الغريبة التي ادعى أنه يسمعها وأنها تأمره بالإقدام على أفعال مشينة و(غير أخلاقية) بحسب وصفه.. لكنها أبدا أبدا لم تتخيل مدى سوء حالته وتدهورها هكذا إلا الليلة.. كان مئزره ملوثا بالدم فتطلعت إليه بذعر! ابتسم متهكما وأقترب منها.. شهقت وتراجعت محاولة الابتعاد لأقصى مسافة ممكنة عنه، كانت تتمنى أن تبتعد عن متناول يديه حتى لو أوصلتها إلى سطح القمر.. كانت يداه لزجتان مخضبتان بدماء جافة لطخت راحتي اليدين، وتسللت إلى السطح الخارجي لليدين صانعة طرطشات وبقع دموية صغيرة وكبيرة على امتداد مفاصل الأصابع الصغيرة والجلد المرتخي بين الأصابع.. كان "جاكوب ليفي" قد بدأ يهزل ويفقد وزنه تدريجيًّا تاركا طيات فارغة مهلهلة من الجلد في كل مكان من جسده.. لكنه لم يفقد ذرة واحدة من قوته وخباله بعد للأسف!

رُوِّعت "سارة" وداهمها شعور أنها ستكون آخر ليلة لها في هذا الوجود، وأن "جاكوب" سيقتلها، لا محالة.. نظرت إليه متوجسة للحظة، ثم خفضت بصرها تنظر للقط المسكين المتدلي نصفه من يد زوجها، ونصفه الآخر يعلم الله أين يرقد الآن، وداهمها إحساس هائل بالاشمئزاز.. أربدَّ وجهها وتقلصت ملامحها ثم سارعت بوضع راحتها فوق فمها لتمنع انفجار محتويات معدتها من بين شفتيها.. نظرت إليه لآخر مرة فحرك حاجبيه لها بطريقة مهينة ثم تركته وهرولت إلى الداخل.. في الحمام أفرغت معدتها وانتابتها نوبة دوار هائلة كادت تُسقطها أرضا!

رباه.. إنها تريد أن تستريح.. تود أن تلجأ لغرفتها لتستريح لكن صوت صراخ مرير أيقظها فجأة من حلمها المظلم المجلل بالغثيان.. كانت ابنتها "راشيل" تصرخ صراخا طالبة النجدة:

"أمي.. أمي النجدة.. النجدة!»

جرت الأم لترى أية مصيبة، أخرى، بانتظارها!

*****

بجوار الحائط التصقت الطفلة الشاحبة المذعورة.. كانت برداء النوم القصير الذي يكشف عن ساقيها الرفيعتين كأوتاد الخشب، وشعرها الأشقر القصير المنسدل بدون نظام على كتفيها، والذعر يقلص ملامحها الجميلة الدقيقة.. بلصق الحائط وقفت، وأباها الذي أكلت الجرثومة عقله يقف سادا عليها الطريق ملوحا في وجهها بالجثة التي لم يتبقَّ منها سوى رأس مدلي وفراء مدمي:

"هاك قطك الصغير.. هل هو حلو؟!»

هتف "جاكوب" وهو يلوح بالفراء الخاوي في وجه صغيرته مقربا إياه من وجهها.. أشاحت الطفلة بوجهها وأدارته بعيدا محاولة إبعاد نفسها عن ذلك المختل المأفون الذي لا يدرك ماذا يفعل:

"قط يا طفلتي.. قط حلو يا "راشيل».. هل تريدين أن تتذوقيه؟!»

قال ثم ضحك ضحكة مثيرة للرعب وقال مخاطبا الطفلة ثانية:

"هل تريدين أن تتذوقيه! أممم.. إنه لذيذ الطعم!»

قال ثم قرب الفراء الدامي من وجهه.. من فمه.. ثم مد لسانه المسود الذي تغطيه بثور وحفر ونتوءات غريبة ولعق طرف الفراء:

"أيها الأحمق!»

صرخت الزوجة وهي تهرع لتنقذ ابنتها المنتحبة المذعورة من براثن أبيها:

"أيها الأحمق المأفون.. أيها المختل المريض!»

صاحت وانتزعت الطفلة الملتصقة بالحائط، بعد أن أزاحت زوجها ودفعته جانبا غير مبالية، حملت "راشيل" الصغيرة المرتعدة بين ذراعيها وطوقتها لتطمئنها أن كل شيء قد انتهى الآن، وأن أمها تبسط حمايتها عليها..

احتضنت الطفلة المرتعدة وآوتها بين ذراعيها وأخذت تصرخ بوجه أحمر غيظا حتى كاد الدم ينسكب منه:

"يا لك من أحمق.. أحمق مأفون حقير!»

استمع بهدوء وعلى وجهه ابتسامة بلهاء وهو يؤرجح بقايا جثة القط يمينا ويسارا بلا مبالاة:

"كدت تقتل الطفلة.. كدت تقتلها يا أحمق!»

أغمضت "راشيل" عينيها وضغطت رأسها في صدر أمها وهي تواصل

الارتعاش بلا توقف:

"يا أحمق.. يا مخبول.. يا مخبول!»

كانت صرخات "سارة" كفيلة بإيقاظ سكان الشارع بأكمله.. لكن أحدًا، حتى وإن صحا من نومه، لم يكن سيُبالي بما يحدث في منزل "جاكوب ليفي" المختل الأصيل..

أفرغت الزوجة غضبها في "جاكوب" قبل أن تحمل ابنتها، التي أفقدها الرعب والصدمة القدرة على الكلام، إلى غرفتها.. ستشاطر "راشيل" أمها غرفتها الليلة وكل ليلة آتية لتحميها من غوائل أبيها.. وسيستمر ذلك الوضع حتى يؤخذ الأب المجنون بعيدا ذات ليلة.. وإلى الأبد!

*****

بعد دقات الواحدة صباحا عادت المرأة الطريدة إلى البيت الذي تسكنه.. لم يكن بيتها بل بيت مستأجر يقيم فيه أخلاط من الناس متنوعي الأشكال والمشارب.. بعضهم يعيش منفردًا كغصن عجوز جاف ضاقت شجرته به فطرحته أرضا لتدوسه الأقدام وتذروه الرياح بعيدا..

وبعضهم كان رب عائلة ولديه أسرة تعيش معه في غرف مستأجرة بالبيت القابع في ٣٥ شارع دورسيت سبيتالفيلدز.. وفي تلك الليلة عادت المرأة تتطوح وقد أفرطت في الشراب كعادتها.. كانت ترغب في شيء واحد فقط وهو أن ترتمي على فراشها وتنام أو تموت.. لا فرق!

لكن يبدو أن الارتماء على الفراش لم يعد متوفرا بسهولة تلك الليلة الغائمة.. مرت من أمام "جون إيفانز" الحارس الذي كان يقف بعيدا متظاهرا بالقيام بواجباته المنزلية، كحارس طبعا، لكن المشرف كان بانتظارها في الرواق الداخلي الصغير القذر.. خاطبها بلهجة قاسية مطالبا إياها بمتأخرات الإقامة عليها:

"إليزي العزيزة.. إنك لم تدفعي منذ أيام يا صغيرتي!»

حاولت أن تتحكم في نفسها وهي واقفة أمامه حتى لا تسقط وتتمدد أمامه على الأرض كخرقة بالية وردت متوسلة»

"تيمي.. إنني لم أتهرب.. لم أتهرب من الدفع من قبل.. دعني.. دعني أنام و..»

رفع "تيم دونوفان" يده ذات الأظفار الطويلة القذرة وهتف بقسوة:

"ولا ساعة.. ولا دقيقة!»

"تيمي.. إنني..»

"قلت لك ولا ساعة.. ولا دقيقة.. الشلنات أولا!»

"تيمي..»

"أذهبي من هنا يا امرأة.. غادري أيتها السكيرة!»

كان "تيم"قاسيًا للغاية مع "أني" لكنه معذور.. فهو ليس مطالبٌ بأن يدفع لها أجرة إقامتها في البيت، وهي تتهرب من الدفع كثيرا تلك الأيام والمالك لن يرحمه لو قصر في تسليم الإيجار كاملا:

"أين أذهب الآن.. تيم!»

فرغت حيل المرأة الأربعينية، التي لم تكن سوى إحداهن في النهاية، فلجأت إلى الوسائل الرخيصة.. ترى هل يمكن أن ينجذب القيم الغليظ القلب إليها وهل سيرضى بأن يحصل على الأجر المطلوب ولكن بطريقة أخرى؟!

لا.. يبدو أن هذا حلا عقيما لن يجدي معه لأنه أقدم على طردها للمرة الثانية وبقسوة أشد تلك المرة.. وهكذا لم يعد أمام المومس الساقطة

سوى أن تجلب المال بأية وسيلة لكي تحظى بسرير ترتمي عليه!

يا لَنَكَد هذا الزمان!

*****

غطست رأسها في الماء في البرميل الكبير الموضوع في الحمام الملحق بالحان القذر.. وجرعت كأسا من الجن على الحساب الآجل، الذي ما أنفك يتضخم ويتضخم حتى كاد يلامس السحاب، ثم هرعت إلى الشوارع الغافية..

خلت معظم الشوارع من روادها بشكل كبير بعد حادثة "بولي" اللعينة.. فالمومسات صِرن يخشيّن على أنفسهن من التجوال في الشوارع في عتمة الليل خشية أن يقعن بين يدي القاتل الذي لا يعرف أحدًا اسمه أو من يكون.. والزبائن صاروا أكثر حذرا فما أدراهم أن ذلك القاتل الجهنمي يقصد النسوة فقط بهجماته ولم لا يتسلى بشق بطن أحدهم واستخراج أحشائه قطعا للوقت؟!

تلك كانت مخاوف مبكرة مبهمة قبل أن تتضح الصورة النهائية.. ويعلم

الجميع نوعية الضحايا التي يفضلها القاتل الذي لم يكن قد حصل على اسمه ولقبه بعد!

*****

يبدو أن القاتل تمكن من طرد النزقة والمتسكعين في هذا الحي وأجلاهم بعيدا عن (وايتشابل) التي أصبحت منطقة نفوذه.. لقد ترك رائحته الخاصة هنا والويل لمن يجرؤ على منازعته أو التعدي على أملاكه المحرمة..

لم يكن العثور على زبون بمثل هذه الصعوبة قط.. عن زبون حقيقي وليس عن أولئك العمال المهاجرين الفقراء ذوي الرائحة المقرفة والسِّحَن العجيبة والجيوب الخاوية.. ماذا نفعل بأحدهم يا فتاة؟!

إننا نريد من يدفع.. ونادرٌ منهم من يدفع.. بل يحصلون على طلباتهم تحت تأثير الوعد المعسول، ثم يبادروا إلى الفرار بعدها ويختفون وكأن لديهم أجنحة خفية يحتفظون بها تحت آباطهم ليُحَلِّقوا بها عند اللزوم.. ساعتين من البحث المُضني قبل أن تعثر على أحدهم.. كان عاملا مهاجرا

كذلك، لسوء الحظ، لكنه بدا أفضل حالا ومظهره واعدًا بأجر طيب..

كان ذو بشرة فاتحة وبدا وكأنه خليط من عنصرين أوربي وأسيوي لكنه كان مقبولَ الشكل.. ساقها إلى ركن معتم فقدمت له الخدمة المتوقعة ثم سوت ملابسها ومدت يديها طالبة الأجر.. أدخل يدا ملوثة بالشحم إلى جيب العفريتة التي يرتديها وأخرج بنسات قليلة لا تملأ عين "آني" ولا تكفي حاجتها:

"هذه فقط؟!»

قالت مستنكرة وهي تهز البنسات المعدودة في كفها وكأنها تزنها وترمق زبونها بنظرة احتقار.. أجاب بصوت نحاسي غليظ غير تام اللهجة:

"هذا كاف جدا بالنسبة لمن هي في مثل سنك وجرمك الهائل!»

طبعا كان الرجل، الزبون، المنتهية صلاحيتها بالنسبة له، يسخر منها.. قبضت راحتها على النقود القليلة وقال له ساخطة:

"هلم ابتعد من هنا.. أيها الكلب المهاجر العقور الجائع!»

وبالفعل ابتعد الرجل وهو يضحك ساخرا متهكما.. زفرت "آني" بضيق وعدت النقود مرة أخرى:

"لن تكفي.. لن تكفي أي شيء!»

بالطبع فإن تلك البنسات لن تكفي شيئا ولن تملأ عين "دونافون" الفارغة دوما، لن يتقبلها كجزء من الإيجار المتأخر عليها، ولن يرضى بأن يدعها ترتمي فوق الفراش لتنام، أو تموت، حتى الصباح.. ليس هناك سوى حل واحد متوافر أمامها!

وهو أن تذهب لتأتي بالمزيد من المال.. زبون آخر وقليل من النقود مرة أخرى!

يا لَتِلك الليلة السوداء التي لا يبدو لها نهاية ولا يظهر لها شمس قاطعة براقة..

زبون آخر.. وهل ستتحمل سماجة زبون آخر في ساعات الصباح المبكرة تلك؟!

لقد تطاير الشراب من رأسها تاركة إياها بروح خاوية ورأس ملأى بالهواء وجسد متطوح شبه فاقد للوعي.. قطعت الشوارع وهي في تلك الحالة وسرعان ما وجدت نفسها بين ذراعي الزبون المناسب، في المكان المناسب، وكان عاملا مهاجرا هو الآخر!

لكنه كان أحسن منظرا.. عثرت عليه، أو عثر هو عليها، بالقرب من ٢٩ شارع هانبري، وأبدى رغبته في أن تقدم خدماتها إليه.. وقدمتها بعد أن دار بينهما حوار قصير انصب على المساومة من أجل النقود.. طلبت هي قدرا معينا من المال، حسبته بدقه ليكمل ما معها من شلنات لتتمكن من دفع الأجر المتأخر عليها ل "تيم" اللعين، ووجده الزبون أكثر مما ينبغي.. دارت مناقشة قصيرة مبتورة، ويبدو أن المومس العجوز راقت للزبون رغم كل شيء فقرر أن يغض الطرف عن مبالغتها في الأجر وأعلن موافقته.. خلال تلك المحادثة القصيرة مرت بقربهما امرأة عجوز وهي السيدة "إليزابيث لونج"، مرت بقرب "آني" وزبونها ووقعت عيناها، اللتين كعيني الصقر، على تفاصيل الرجل الواقف بمواجهة المومس التي كانت تعرفها معرفة وثيقة وتمكنت من تمييز ملامحه الأساسية.. رجل أربعيني أطول من "آني" ببضع سنتيمترات، وعلى رأسه قبعة مطارد غزلان وبشرته داكنة بمعطف أسود اللون لكنها لسوء الحظ لم تتمكن من رؤية وجهه الذي كان ينظر للجهة الأخرى بعيدا عنها:

"هذه الساقطة العجوز.. لا تكف عن اصطياد الفرائس أبدا!»

تمتمت "إليزابيث" حاقدة وهي تنزوي مبتعدة عن الأنظار تاركة السيد والسيدة ينهيان أمورهما معا كيفما شاءا.. لكن ليت العجوز ذات عيون الصقر بقيت في الجوار ولو قليلا.. فربما كان هذا كفيل بأن يغير كل شيء!

كانت الساعة تشارف الخامسة والنصف صباحا حينما التقطت عينا الجارة مشهد "آني" وزبونها.. مرت نصف ساعة أخرى وبدأت الشمس تشرق على زقاق هانبري وبدأت معها خيوط جريمة جديدة، أشد قسوة وترويعا من الأولى.. تنشر غمائمها السوداء على وايتشابل وعلى الأمة بأسرها!

*****

كانت بدايات صباح يوم الثامن من سبتمبر عام ١٨٨٨م تبشر بيوم صيفي حسن صاف.. تعلقت الشمس كقبة صغيرة حمراء في شرقي سماء لندن وأخذت تدنو من الأفق بلونها الناري وكأنها كرة من نار تهفهف فوق المدينة العظيمة.. خرج الحمال "جون ديفيز»، المقيم في ٢٩ شارع "هانبري»، من منزله مبكرا قاصدا السوق، حيث يعمل، لكي

يحصل على فرصة طيبة للعمل بكثافة في هذا اليوم الذي يبدو نديا مترعا بفرص البيع والشراء.. لكنه وهو يسير عبر الشارع عثر في طريقه على شيء ملقي بجوار جدار.. كومة من الملابس المخضبة بالدماء كان من الواضح، حتى لمن له عين واحدة وليس زوج منها، أن بداخلها جسد بشري ممزق..

صاح الرجل، الذي أفزعه منظر الدماء المسفوحة في كل مكان، مناديا طالبا النجدة.. تمددت المرأة القتيلة بالقرب من المخرج في الفناء الخلفي..

ملطخة بالدم، ميتة موتا قبيحا يجعلك لا تصدق أنها كانت إنسانا حيا يتنفس منذ ساعات، وربما دقائق.. جاءت النجدة وأتى المنقذون، لا ليخلصوا المرأة المسكينة المجللة بصمت الموت، فقد أنهى الموت والسفاح عذاب الحياة وأراحاها منها، لكن ليخلصوا الشهود مما أصابهم من ذعر وتقزز بسبب المنظر الكريه.. حول الجثة وفي داخل الفناء تناثرت بضع أغراض صغيرة بدا واضحا أنها تخص إما الضحية أو السفاح، أو تخصهما معا..

قطعة صغيرة من الشاش، ومغلف ممزق لم يتبقَّ منه سوء جزء صغير، مشط، بالإضافة إلى اثنين من الحبوب المستخدمة لمنع حدوث الحمل.. حُملت "آني»، أو ما بقي منها، إلى بيت إقامة مجاور يحمل اسم (كروسينجهام) وبدأت سلسلة طويلة، لا تنتهي، من التحقيقات والمطاردات للقاتل المجهول.. خضع "جون ديفيز»، الجار الذي اكتشف الجثة وكذلك السيدة "لونج" لاستجوابات مرهقة طويلة.. بدا رجال سكوتلنديارد، الذين أصابهم مس من الجنون، راغبين في اعتصار الاثنين حتى يموتا أو ينتزعوا منهما أية اعترافات أو معلومات قد تفيدهم في التحقيق بأي طريقة.. حتى لو كانت معلومات مغلوطة كاذبة!

أُسّقِط في يد "لونج»، التي لم تمر بموقف مشابه من قبل، وداخلها الفزع خشية أن يُزج باسمها، بطريقة أو بأخرى، في تلك الاتهامات والمطاردات الجهنمية.. وبدأت المرأة تثرثر وتختلق أي معلومات وحتى ما رأته بعينيها بدأ يتداخل، في عقلها، بتصورات وخيالات أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ولا ظل لها من الحقيقة.. وأخذت تصف الرجل، الذي شاهدته برفقة القتيلة قبل العثور على جثتها بوقت قليل، بأوصاف وعلامات

متضاربة.. فمرة تقول إنه طويل، يناهز طوله الستة أقدام، أي أنه أكثر طولا من الضحية بزيادة قدرها ٣٠ سم تقريبا، ومرة تقول إن قامته لم تكن ترتفع عن قامة "آني" الملاصقة له بأكثر من سنتيمترات قليلة، وحتى ثيابه ارتبكت السيدة "لونج" بشأنها، فهل كان يرتدي ثيابا رثَّة أم جيدة.. شهدت مرتين شهادتين متعاكستين ومتضاربتين تمامًا.. وحين ضيق عليها المحققين الخناق وكادت تزهق روحها اختصرت الموضوع جامعة الضدين في جملة واحدة فوصف منظر السيد الذي رأته برفقة "آني" بأن له منظرا رث مرموق!

قضت مومس أخرى إذن نحْبها، ولم يترك قاتلها خيطا وراءه يمكن تتبعه أو الإمساك به.. خيم الذعر على الحي الشرقي وعلى لندن بأسرها! أما الصحف فقد وجدت في الجريمة الجديدة، الثانية، وجبة مفضلة ومصدرا لرزق وفير لمحرريها المعدمين.. في صبيحة اليوم التالي تصدرت الصحف عناوين ضخمة مخيفة تثير بمفردها الذعر في قلوب أكثر الناس برودا واطمئنانا:

جريمة في الحافة الشرقية

ذعر في الحافة الشرقية

جرائم وايتشابل: ضحية أخرى

الوحش يضرب ثانية

كان الذعر كامنا في النفوس أصلا منذ وقوع جريمة الجمعة السوداء ٣١ أغسطس المنصرم، ولم تفعل الجريمة الجديدة إلا أنها جعلت ذلك الذعر يطفو مُفصحا عن نفسه بأكثر الطرق وحشية وإثارة للنفور.. والعجيب أنه بدلا من أن تثير تلك الجرائم العطف على الفئة التي تنتمي إليها الضحيتان، اللتين قُطعتا وشُوهتا وتم العبث بأجسادهن، فإنها أثارت المزيد من الكراهية والاشمئزاز نحوهن وأصبحت المومسات أكثر تعرضا للإيذاء والتعدي من الزبائن، أو من غيرهم، بسبب أو بدون سبب!

لم تتعرض "آني" للذبح فحسب.. بل استؤصل رحمها كذلك!

تلك مصيبة في حد ذاتها، بتر الأعضاء.. لكن المصيبة الأكبر كانت تكمن هناك في الانتظار.. فعملية الاستئصال كانت نظيفة وتامة ولا يمكن أن تتم إلا بيدي خبير.. جراح أو جزار يعرف جيدا ما يفعله وما لا يفعله!

(٧)

جراح أو جزار.. لا يهم فكلاهما سِيان!

ذات مساء، بعد الثامن من سبتمبر وقبل الخامس والعشرين منه، حدث لقاء سري بين رجلين مهمين خطيرين ليس بوسع أحد أن يحلم بالتصنت على اجتماعهما أو سماع ما يقولان.. دار حديث؛ تبادل فيه الطرفان وجهات نظر لم يكن من السهل للأسف التأكد تماما من صحتها:

"إن الناس يتهامسون يا سيدي!»

انطلق دخان الكورونا الأزرق في وجهه ونفث من يواجهه دخانا كثيفا من صدره المليء:

"ماذا يقولون؟!»

صمت المتكلم الأول وراقب تعبيرات وجه من يجلس أمامه ثم أجاب بحذر:

"يقولون.. يقولون أن ثمة أمر غير طبيعي يجري في الحافة الشرقية!»

ضحك الثاني ضحكة قصيرة خاطفة أضاءت وجهه الضخم للحظة قبل أن تختفي:

"أمر غير طبيعي؟! يتهامسون ويتساءلون.. ومنذ متى كان لأولئك الأوغاد عقول يتساءلون أو يفكرون بها؟!»

كان الرجل يحتقر العامة بشدة، كما يظهر من لهجته نحوهم، وبشكل ما كانت توقعاته صادقة، لكن ذلك لن يغير من الأمر شيئا فالأقاويل المُغرضة، صدقا، بدأت تتردد وتتناقل زيادة عن الحد:

"لكن يا سيدي.. إنهم يتقولون بشأن جرائم وايتشابل ويتهامسون (توقف للحظة ليختار كلمة مخففة الوقع) أعني أنهم يعتقدون أن هناك مؤامرة خلف كل ما يجري!»

هنا غضب الرجل الثاني غضبًا شديدًا وطفح الدم على وجهه حتى كاد ينبثق منه:

"مؤامرة؟! بأي حق تستخدم هذا اللفظ؟!»

"سيدي (أجاب بخوف) لست أنا من يتحدث بذلك.. بل إنهم هم من يقولون.. الناس أعني.. خاصة بعد نشر ذلك التقرير الطبي الخاص

بالقتيلة الثانية!»

زفر الثاني بضيق فقد كانت مسألة نشر التقارير الطبية الجنائية خارج المخطط له تماما:

"من الذي سمح بنشر تلك التقارير.. عليهم اللعنة.. من فعلها؟!»

لم يكن معروفا بالتحديد من الذي أعطي الضوء الأخضر لنشر تقارير التشريح الخاصة بقتيلتي الإيست إند، وقد كان هذا العمل غلطة فادحة.. فنشر هذين التقريرين، خاصة الثاني المتعلق بالمدعوة "آني تشابمان" قد آثار شكوكا هائلة حول الأمر كله:

"لا أعرف يا سيدي.. لا أحد لديه معلومات كافية بهذا الشأن.. لكن مندوبو الصحف حصلوا عليها بطريقة أو بأخرى وقاموا بنشرها!»

"بلبلة.. بلبلة!»

هتف الثاني ساخطا والكمد يطل من عينيه:

"بلبلة لا مُسَوغ لها.. لكن السؤال يبقى كما هو: من سمح بتسرب تلك التقارير التشريحية لأيدي الصحف؟!»

حك الأول رأسه، الذي تساقط معظم الشعر عنه، ثم هتف محاذرا أن

يزيد الطين بَلَّة:

"أعتقد يا سيدي أن تلك التقارير تكون بين يدي المحققين، بعد خروجها من لدُن الفاحص الطبي!»

"آه.. هذا هو إذن.. ذلك اللعين!»

لم يوضح الرجل المدخن مقصده (باللعين) لكن التفسير آت عما قريب:

"إنه هو ولا أحد غيره.. من هو الطبيب الذي يتولي الأمر؟!»

"إنه الدكتور "جورج باغستر فيليبس» ٢٣ يا سيدي!»

"آه.. فلتنحيه فورا عن متابعة هذه القضية.. ولتعين طبيبا آخر لتشريح جثث أولئك النسوة اللائي سيسقطن في الحافة الشرقية!»

أفلتت الكلمات الخطرة من بين شفتي الرجل دون تخطيط وسمعها معاونه ولا فائدة من التظاهر بأنه لم يقُلها.. بريق جاف تساءل المساعد المذعور:

"أهناك نسوة أخريات سيقتلون هناك يا سيدي؟!»

هنا انفجر غضب الرجل الخطير وقد أدرك أن معاونه، رغم البلاهة الظاهرة عليه، قد التقط المعنى الكريه الذي تشي به كلماته الأخيرة.. إن

ثمة من سيقتلون في الحافة الشرقية بعد وهم على علم بذلك!

"وما أدرانا نحن يا أبله.. إنه فيما يبدو سفاح عتيد ولا أظن أنه سيكتفي بتلكما البائستين، وغالبا فستسقط له المزيد من الضحايا.. إنه منطق أرسطي وليس سفسطة بروتاجوراسية «

سفسطة يا سوفسطائي؟!

أتظن الناس كلهم حمقى وبلا آذان يسمعون بها؟!

لم يصدق المعاون حرفا من هذا التبرير البارد.. لكن القرار أُتُخذ فعلا بتنحية الطبيب "جورج فيليبس" عن متابعة القضية الخاصة بسفاح الحافة الشرقية الطليق.. وتم تعيين طبيب آخر لمناظرة جثث الضحايا، في حالة سقوط ضحايا آخرين كما جاء في القرار الرسمي الخاص بتنحية الطبيب الأول..

أسندت القضية لطبيب آخر وانتهى الأمر إذن وأصبح الجميع سعداء..

لا لم يجدوا الفرصة الكافية ليكونوا كذلك.. فقد بدأ سيل الرسائل ينهمر فوق رؤوسهم الضخمة!

*****

دق بابه بحذر.. كان جالسا يُداعب الإلهام العصي ويُراوده عن نفسه.. لقد استعصى عليه وتدلل منذ أسابيع ولا يعرف لم.. أم أنه لم يعد بحاجة إلى الإلهام أصلا! كان يتوقع القادم، لكنه لم يكن واثقا منه، لذلك فتح فرجة صغيرة في الباب ونظر عبرها مدققا في ملامح القادم.. كان هو ولا شيء مثير للخوف هنا!

إن الناس، المتطفلين، مولعون باقتحام معبده المقدس وتدنيسه بأحذيتهم الثقيلة وبأعقاب سجائرهم وتعليقاتهم السمجة، التي لم يطلبها أحد بتاتا، على ما يقوم به:

"آوه أيها السيد الفنان.. كم تبدو لوحاتك جميلة!»

حسنا جدا ولكن من طلب رأيك أيتها السيدة التافهة المتبرجة كبنت صغيرة وأنت في عقدك السادس؟!

لذلك اعتزل واختار أن يبتعد بأقصى قدر ممكن عنهم.. عن كل ضجيجهم وصخبهم الفارغ!

كان القادم مختلفا تماما عمن أراد أن يقصيهم بعيدا عنه.. فقد كان الزائر يعرف قدر مستقبله تماما ويتفهم مزاجه العصي ويجيد التعامل

معه.. بالإضافة إلى أنه كان من الذكاء بحيث يحتفظ دائما بمسافة مأمونة كافية تفصله عنه!

نظر "سيكرت» ٢٤ إلى زائره بهدوء وارتسمت على شفتيه ابتسامة باردة:

"طاب صباحك مستر "والتر»!

"هاللو.. عمت صباحا هل أحضرت الأشياء؟!»

لم يكن بحاجة إلى السؤال فقد كانت الأشياء فوق ذراعي الرجل ظاهرة تماما للعيان.. نسخ لا حصر لها من الصحف، جميع الصحف اللندنية تقريبا، ولفافة صغيرة من الطعام.. وأدخنة متنوعة لتحضير ما يكفي من السجائر للوحدة والإلهام الفني.. بالإضافة إلى رُزم من الورق!

"حسنا.. ها هي أشيائك!»

قال الزائر وهو يدفع بكل تلك الأشياء إلى السيد الفنان الذي تلقاها ببرود دون أن يعني بتوجيه كلمة شكر للرجل الذي تعب من أجله:

"حسنا.. كم كلفتك؟!»

"عشرة شلنات يا سيدي!»

قالها متلعثما لأن الأخير كان يركز نظراته الحادة عليه.. كان يعرف أن

الرجل يخدعه، أو يحاول أن يفعل على الأقل، وهذا ما جعله يبتسم فهو يحب المخادعين!

لم يجادل "والتر سيكرت».. بل دفع لزائره ما طلبه ببساطة، وإن علم أنه يشتط كثيرا، دون لجاج ثم دفعه خارجا دون كلمة..

ذهب الرجل مغمغما ببضع كلمات يصعب الإمساك بها أو فهمها تاركا الفنان وسط فراغ مرسمه وحده..

لكن المرسم لم يكن فارغا بأي حال من الأحوال.. بل كان مكدسا حتى السقف.. لوحات فنية مكتملة، أو شبه تامة، لوحات أخرى في مرحلة البدء، وبعض الأخريات التي لم تزل مشروعا خجولا لم يفصح عن نفسه بعد.. هذا عدا أدوات الرسم؛ الريش والأحبار والزيوت والأصباغ، المتناثرة في كل صوب، بالإضافة إلى أعداد ضخمة من الصحف والمجلات..

صحف ومجلات في كل مكان.. الرجل كان مدمنا تلك الورقات المطبوعة فيما يبدو.. لكن لمَ تراه يهتم كل هذا الاهتمام بالصحف والمجلات والأخبار وهو الذي يشتهي العُزلة عن العالم؟!

سؤال متطفل لا قيمة له ولن يهتم السيد "سيكرت»، غالبا، بالإجابة عليه مهما حدث.. أخذ الرجل قطعة من الخبز أخذ يقضمها وهو يطالع الصحف الصادرة صباح اليوم..

لا تزال "آني تشابمان»، التي لم تشغل أحدا في حياتها، تشغل بال محرري وكتاب أعمدة الصحف اللندنية البارزة.. لكن تقارير التشريح وإرهاصات كتاب الأعمدة شيء فاتر سرعان ما يهدأ وتهدأ الضجة المقامة حوله.. واضح أن الجريمة الثانية آلمتهم حقا وأصابتهم بالجنون.. لكن الألم والجنون لا يكفي.. الذعر، الكثير منه، هو المطلوب!

حتى وإن كان بعض الذعر متوافرا إلا أن المزيد منه لن يضر.. لن يضر مطلقا خاصة لو كان ذعرا مفيدا للصحة ومجانيا لن يدفعوا في مقابله شلنًا واحدا!

ارتسمت ابتسامة واسعة على ملامحه الجميلة المتناسقة وبدا أنه وصل إلى فكرة جهنمية.. فكرة آتية إليه رأسا.. من الجحيم!

*****

خيَّم الفزع على شوارع الحي المَوْبُوء المتهالك، وعلى شوارع لندن بأسرها.. فما الذي يدري الشعب اللندني المذعور أن القاتل المختل لن يوسع مجال نشاطه، ولن يمد يديه القاتلتين المخضبتين بالدم المسفوح إلى أحياء أخرى من المدينة العتيقة؟!

وفي نفس الوقت الذي غشيت الرؤوس فيه سحابات الرعب والجزع أظلمت سماء لندن تحت غطاء كثيف من خطابات مريعة، مجهولة الراسل، تساقطت فوق رؤوس وكالات الأنباء والصحفيين والمسئولين الرسمين.. كلها مجهولة المصدر، وكلها يدعي راسلها أنه هو نفسه القاتل.. قاتل وايتشابل الممزق للأجساد! والذي سقطت له حتى الآن ضحيتين، أو يعلم الله وحده حقيقة عدد الضحايا الذين ضرب أعناقهم حتى الآن.. لم يصدق أحد!

لم يرغب أحد في أن يصدق حرفا.. لقد تحملوا ما يكفي من الرعب.. إنهم يرتعدون لمجرد تخيلهم أنه، القاتل المجهول، يقبع هناك في الظلام منتظرا ضحيته الغافلة عما يراد بها، في ركن مظلم قصيّ مُخيف وفي الحي السافل المترع بالحرمان والفقر والشهوات، ينتظرهم لينقض

على رقابهم فيمزقها، وعلى أجسادهم فيقطعها.. تحملوا هذا الرعب المهلك حتى الآن.. لكن أن يحادثهم القاتل نفسه بنفسه، ويكشف لهم عن شخصيته، إن فعلها، ويرفع الستار الكثيف، الذي يحميهم من رؤية وجهه الذي لا يريدون رؤيته أصلا، فهذا يبدو مُخيفًا.. مخيفًا حتى أكثر من منظر "بولي" وهي مستلقية هناك مذبوحة.. وأكثر إثارة للاشمئزاز من منظر جسد "آني" الممزق المفتوح الذي قطع عنقه وأُخذ رحمه بعيدا.. أضف إلى ذلك سببا مهمًا.. أنه ما من أحد يصدق أن الراسل الفعلي لتلك الرسائل السخيفة الملفقة يمكن أن يكون حقا هو القاتل بنفسه! وُصِمت تلك الرسائل بالمخادعة إذن.. لكن بعضها بدا لافتًا للنظر، وربما مخيفا، لدرجة لا يمكن معها تجاهلها أو إغماض الأعين والتعامي عنها.. ففي السابع والعشرين من نفس الشهر الذي وقعت فيه جريمة مقتل "تشابمان»، وبعد أن غادرت المرأة الحياة على هيئة قطع وأشلاء ممزقة بسبعة عشر يوما، تلقت وكالة الأنباء المركزية خطابًا مثيرًا للاستياء والدهشة جاءت مقدمته على هيئة صيغة افتتاحية لائقة ومعتادة:

"عزيزي المسئول..»

لكن (عزيزه المسئول) لم تمنعه بعدها من شن وصلة من السخرية المريرة من رجال الشرطة ومن مستخدمي سكوتلانديارد البؤساء الذين يجدون في أعقابه، بصفته القاتل كما يدعون، دون أن يقدروا على الإمساك به.. ولم يكتفِ بالسخرية من رجال الأمن بل أسرف في إهانة ضحاياه والتقليل من شأنهن.. كل ذلك لم يكن ليقنع عصفور بأن هذا الكاتب الظريف المتحبب هو سفاح (وايتشابل) الطليق.. لكن الكارثة كانت تنتظر بعد بضع سطور لتنفجر في وجه الجميع، وقد كان.. إنه يهدد بشن المزيد من عمليات الفتك المروعة، ليس هذا فقط.. بل يعدهم بأن يترك لهم علامة ليعرفوه بها.. فسيقطع لهم أذن الضحية القادمة! ارتجف الجميع ذُعرا.. كان الخطاب مرسل بتاريخ الخامس والعشرين من سبتمبر، أي أنه كُتب، أو أرسل فقط على الأقل، منذ يومين.. ولأن لا أحد يرغب في أن يصدق.. فقد مضي يومان آخران قبل أن يشعر بعض من لا زال لديهم القليل من الحس بالمسئولية بضرورة توصيل هذا الخطاب إلى المعنيين.. إلى من يمكنهم التعامل مع كاتبه ومع التهديدات المرعبة التي يطلقها.. وهكذا مُرر الخطاب إلى سكوتلنديارد في التاسع

والعشرين من الشهر.. لكن للأسف، فإنه حتى رجال سكوتلانديارد المخضرمون تعاملوا مع الأمر بمزيج من التساهل والتكاسل والحماقة.. صُنف الخطاب كخدعة سمجة.. لكن عما قريب سيتبين حقا من هو المخدوع هنا!

*****

امتقع وجهه حينما فوجئ بالباب يُدفع وشخص ما، لا يعرفه، يدلف إلى حجرة مكتبه المنزوية مقتحما عليه عزلته، الإجبارية المقدسة.. جمع أوراقه على عجل وبلهفة جنونية حتى كاد يمزق بعضها، وألقي بها في درج مفتوح وأقفله ثم وثقه بالمفتاح.. مد يديه يمسد شعره الأسود الكثيف وتنفس الصعداء حين بدا وجه زوجته على الباب:

"أهذه أنت؟!»

وأخذ نفسا طويلا عميقا يخفف به من حرارة المفاجأة وغليانها في صدره.. كانت الزوجة قلقة عليه:

"فريد" لم تغلق الباب على نفسك طوال تلك الساعات؟!»

لم يفطن "فريد" لمرور الزمن فيما يبدو، ولا شعر بأن أربع ساعات كاملة انقضت وهو جالس بمفرده خلف باب المكتب الصغير المغلق عليه من الداخل:

"كنت أعمل.. لديَّ بعض العمل!»

همس "فريد" وحدَّق في وجه زوجته اللطيف المستدير.. ولكن ماذا تعمل؟!

"ماذا تعمل؟!»

فكر للحظة قبل أن يُجيب:

"أكتب مقالا.. مقالا للجريدة!»

طبعا المقال للجريدة التي تعمل بها يا سيد "بيست" العبقري وهي تعرف ذلك.. لكن عن أي شيء وما هي نوعية المقال الذي يُبقِي كاتبه منعزلا عن أسرته، ولا يستجيب للطرق على بابه، لأكثر من ثلاثة ساعات أيها السيد الصحفي من فضلك؟!

"إنه مقال عن "جاك السفاح».. أعني قاتل وايتشابل الرهيب الذي يمزق المومسات!»

"آه».. هتفت الزوجة وهي ترفع وجهها وتتفحص زوجها بنظرة من عل:

"هل اسمه هو "جاك»!»

بدأ "فريد "يتعرق إذ أدرك الخطأ الجسيم الذي وقع فيه:

"أعني السفاح.. اسمه "جاك»؟!»

تلعثم مُحاولا إصلاح ما يمكن إصلاحه:

"نعم فيما أظن.. يقولون إن اسمه "جاك" فعلا؟!»

وفي اللحظة التالية جاء السؤال الذي لم يكن يرغب بسماعه:

"وكيف عرفت؟!»

"كيف عرفت ماذا؟!»

"كيف عرفت أن اسمه كذلك.. أعني أنهم لم يقبضوا عليه بعد.. أَفَعَلوا؟!»

مسح جبينه محاولا التهرب من الإجابة وقتا كافيا ليصيغ فيها كذبة جديدة معقولة:

"لا لكنهم يقولون ذلك.. سمعت أنهم تلقوا رسائل من القاتل وقد أفصح فيها عن اسمه!»

"رسائل من القاتل؟ وأفصح عن اسمه؟! «

تساءلت غير مصدقة فساء موقف الزوج أكثر فأكثر:

"أعني أنه يعبث مع البوليس برسائل ساخرة.. لكنه بالطبع ليس اسمه..

"جاك" أقصد.. لابد أنه اسم شفري أو شيء من هذا القبيل!»

ضمت الزوجة طرفي الروب على جسدها النحيل وهمست:

"حسنا!»

لملمت نفسها وبدأت تستعد للذهاب حينما لاحظت أن زوجها لا زال راغبا

في البقاء في مكتبه:

"عشاؤُك جاهز فيما لو أحببت أن تأكل.. على المنضدة يمكنك أن

تسخنه؟!»

كانت تتساءل وكان راغبًا في التخلص منها بأسرع وقت فهتف بتسامح:

"نعم نعم.. بالطبع بالطبع يمكنني ذلك!»

استدارت لتذهب لكنها توقفت في منتصف المسافة:

"فريد!»

"نعم !»

أجاب ويده ترتجف بعصبية على حافة الدرج الموصد:

"لا تورط نفسك في شيء خطر.. أرجوك!»

تَفَصَّد المزيد من العرق من جبينه وقال مؤكِّدا بصوت خافت:

"بالطبع بالطبع.. لا تخشي شيئا!»

تركت الزوجة له غرفة مكتبه يمرح فيها كيفما شاء.. هرع ليغلق الباب خلفها بعناية وهو يتنفس أنفاسا متلاحقة متهدجة بسبب المفاجأة ونفاد صبره..

فتح درجه المقدس واستخرج رزمة الأوراق التي كان يعمل عليها.. والأحبار كذلك!

نظر نحو الباب ليستوثق من أنه لا مفاجآت أخرى قادمة في الطريق، ولا أحد ينوي اقتحام محرابه المقدس عليه.. ثم سحب ورقة خاصة مكتوبة حتى منتصفها، وعكف على كتابة المزيد من السطور بعناية وحذر وهو ينتقي ألفاظه وتعبيراته بمنتهى الدقة والحزم.. كان يعكف على تزوير واحدة أخرى من رسائله المزيفة تلك بعناية فائقة.. بعد أن أثبتت الرسالة الأولي أن مستقبلاً مشرقا ينتظر تلك الرسائل المزيفة الممهورة

بتوقيع (جاك الطاعن) المرعب..

لكن مستر "فريد بيست «٢٥ أرتكب خطئًا شنيعا حينما ظن أنه الوحيد في مدينة لندن كلها القادر على الإقدام على تلك اللعبة الخطرة وتزييف تلك الرسائل المرعبة بحرفية ومهارة.. كان مخطئًا للغاية.. لأنه وفي ذات قلب المدينة العظيمة كان هناك من هو أجدر منه بتلك اللعبة.. وربما من هو أكثر حرفية منه فيها!

*****

جلس في مرسمه متحفزا.. إنه يود فكرة فنية تهبط عليه، ولكن الأفكار الفنيَّة صارت شحيحة تلكم الأيام المليئة بالأفكار الناضجة.. لكنها للأسف لم تكن من نوعية الأفكار القابلة للرسم! أفكار ناضجة شهية تلعق بعدها شفتيك، لكن ما الفائدة إذا كانت غير صالحة للأكل.. ما الفائدة وهي غير صالحة للإخراج على الورق!

يا لَلرعب!!.. هل يجرؤ على وضع أفكاره المخيفة، التي تراوده ليلا ونهارا، على الورق أو على القماش..

لا طبعا.. العقل زينة والحرص واجب وكل سخافات العجائز ليست سخيفة جدا أحيانا ويستحسن اللجوء إليها في حالة الضرورة!

وأي ضرورة؟!

ورغم ذلك فإن هناك إيجارا لابد أن يُدفع ونقودا يجب أن يتحصل عليها المرء مهما كان الأمر!

فرد قطعة قماش جديدة وأخذ يداعب أصابعه، يثنيها ويفردها، ويداعبها كما يداعب المرء هرَّته الصغيرة بُغية تدليلها وإشعارها بالأمان..

إنه يريد أن تشعر أصابعه بالأمان لكي تهدأ وتنتعش.. وتعمل!

فلتعملي إذن أيتها الأصابع الطويلة وتُنجزي شيئا له قيمة.. قيمة مادية مالية بالطبع حتى وإن لم يكن يساوي، فنيا، حفنة تراب!

المناظر الطبيعية ثانية.. اللعنة!

متى ستوقف كل هذا يا "سيكرت" المطيع؟!

كان قد قرر أن يرسم منظرًا طبيعيًّا سخيفًا ليبيعه ويتحصل على قليل من المال الكافي لدفع الإيجار.. اختار ألوانًا مبهجة ووضعها بقربه.. أخضر للون الحشائش والأوراق التي تغطي فروع الأشجار، لابد من

فروع أشجار في الموضوع، وأحمر للأزهار الحمراء الصغيرة، التي تحبها الفتيات الحمقاوات ويدفعن الآباء والأزواج لشراء اللوحات فقط لأن زهرة حمراء راقتهن فيها ولا شيء بعد ذلك، وألوان أخرى لأنواع ثانية من الأزهار.. سيلطخ اللوحة كلها بالأزهار لعلها تجد، سريعًا، شاريًا أحمقًا.. وهذا ما سيحدث غالبا!

لكن اليد، يد الفنان، ليست دائما ملكه، ليست دائما تحت تصرفه.. إن ذوي القدرات العقلية القاصرة أو العادية كثيرا ما تكون لعقولهم سيطرة كاملة على أجسادهم.. وذلك لأنهم لا يفكرون غالبًا.. أيديهم وأرجلهم وجذوعهم وحتى أفكارهم تسير بوحي وتنسيق من عقولهم الخامدة التي لا تفكر سوى في الأكل وارتشاف الشراب والعبث وإتيان الملذات.. ليست لأيديهم حياة خاصة بها، لأنهم، ببساطة، ليست لهم حياة أصلا.. إنهم آلات لا أكثر، ماكينات، والآلة، مهما كانت جيدة ومهما كانت مصنوعة بحذق، فهي آلة في النهاية.. هل سمع أحد عن آلة لها حياة خاصة أو تسير وفق هواها هي وليس وفق إرادة من يشغلها ويتحكم فيها!

كانت مشكلة "والتر سيكرت" أن يداه، كأيدي أغلب الفنانين، لها عقلها

الخاص.. وكثيرا ما كانت تملي عليه هي ما يرسمه وليس العكس.. وهكذا وقف عقل "والتر" مُتفرجًا بينما اليد تعمل ما بدا لها.. كان عازمًا، بعد تفكير ومراجعة ما أنجزه من موضوعات طبيعية سابقة، على رسم وادي.. موضوع مختلف قليلا عما قام به سابقا، وإن كان يدور في نفس الفلك.. سيرسم وادي، وادي ضيق تحفّ به جبال شاهقة تجللها الثلوج البيضاء، وفي مقدمة اللوحة، وكنوع من التناقض مع الجبال الميتة التي تدثرت بكفن أبيض من الثلوج، نبتت أشجار خضراء زاهية تقاوم الموت والانحلال والفساد.. تضاد يوضح الفارق الرهيب لكن لسلطان الجليد الكلمة في النهاية!

سينداح الجليد خانقا البراعم الخضراء ومحيطا بها، كقوة قبض إبليسية شريرة تنفذ أمرا متعسفا بخنق كل ما هو جميل، كل ما هو خير، وكل ما يمنح البشر الخير والنماء والأمان.. معنيين متضاربين تماما لكنهما ليسا أقل تضاربا من الأفكار التي تتصارع في عقل "والتر" الآن.. لكن يبدو أن العقل المنعزل الذي كانت تملكه يده لم تلقّ أيًّا من تلك الأفكار إعجابه أو رضاه.. إنه، ذلك العقل الخاص، سيُملي على اليد ما

تقوم برسمه.. وإنها لفاعلة!

كان اللون الأبيض يرتعش في اليد محاولا رسم حدود الجبال المجللة بالجليد المتراكم.. لكنه وجد نفسه يرسم ملامحًا رغم ذلك.. تقاطيع وجه بشري واضحة.. جبهة ضيقة وخدان مرتفعان ذا وجنتان بارزتان وفم صغير منفتح عن صرخة.. ملامح تنطق بالرعب والذعر واللون الأبيض الشبحي يكسوها.. شحوب أبيض ميت لوجه ميت مجلل بالصمت والتباعد!

كان الرأس صغيرًا لكن الشعر البني جعله يبدو أكبر من حجمه بمرتين على الأقل.. كان الشعر ثائرا غير مهذب رغم ليونته ونعومة ملمسه.. الوجه يتصل بجسد ممدد على الأرض بلا حراك يستدير إلى الجهة الأخرى وكأنه يود أن ينأى عن الناظر إليه بكل الطرق.. تصلب الجسد وشحبت دمائه.. تبدلت الجبال المغطاة بالثلج إلى جسد أنثوي شاحب ممزق، وبالسحر تبدلت الخلفية المكونة من سماء مفتوحة تكللها الغيوم البيضاء إلى جدران قبيحة.. جدران تساقط ملاطها وتعرَّت أحجارها وأكلت عليها الرطوبة حتى شبعت وانتفخت أوداجها ببقع سوداء وأخرى

خضراء تشع ليونة عُشبية مُقززة.. وتمخض مشهد السماء المتواري عن منظر زقاق ضيق عفن تتمدد فيه جثة ممزقة بفظاعة.. جثة "أني تشابمان»!

لقد هلكت السيدة "تشابمان" بالفعل بحالة قريبة من تلك التي صورها عقل "سيكرت»، وربما بشكل أكثر رعبًا، لكن ما الذي أتي بالمومس الأربعينية القتيلة في تلافيف مخ الرسام المولع بالمناظر الطبيعية.. هل كان مشهد موتها الشنيع في عقله الخاص، أم أنه توارى حتى نضج في العقل الآخر الذي تمتلكه يده النابضة بحياة أخرى تليق بها؟!

سؤال مرعب في حد ذاته، لكن من حسن الحظ أن الفنان لم يهتم بسؤاله نفسه فقد كان مأخوذا مبهور الأنفاس.. لقد أذهلته رؤية التفصيلات المروعة التي تدور في خياله.. لكن ما شأنه هو بقضايا الموت العنيف، المجهول الفاعل، في حي وايتشابل، حي المومسات الوضيع؟!

لم يخامره أدنى شك في أنه، بطريقة أو بأخرى، على علاقة بتلك الجرائم، وعلى علاقة أيضًا بفاعلها.. لكن كيف يتأتى هذا وهو لا يعرف حتى اسم هذا الفاعل الغامض الرهيب ولا يعلم حرفا واحدًا عنه؟!

إنه هناك، بالداخل يا "سيكرت».. أمسك برأسه وشعر بالدوار يلف دماغه ويحرق خلايا مخه.. ترك ريشته بعد أن أنهى، بضربات سريعة من يده المتمكنة الخبيرة، تقيؤ أفكاره على الورق.. لكن هذا لا يكفي!

إنه هناك، بالداخل، وهو راغب في التحدث إلى العالم بلسان فصيح وبأسلوب عاقل راجح..

ترك ريشته وألوانه... إذن، فلم يعد بوسعها التعبير بأمانة عما يجيش بخاطره، وعما يريد أن يوصله إلى العالم.. واتجه ناحية منضدة صغيرة يتخذها مكتبا له وفوقها يدبج رسائله التي لا تنتهي لأصدقائه وزملاء مهنته ومعارفه، وأحيانا يتخذها مسندا لرسم بعض بورتريهاته الصغيرة.. وفوق المكتب كانت تستقر رزمة الورق، التي أُحضِرت إليه بالأمس ومجموعة من الأقلام الملونة، والعادية وريش الكتابة وفرش صغيرة بعضها نظيف تمامًا، وأخرى مبللة بألوان جافة متماسكة على سطح شعيراتها المتلاصقة.. سحب ورقة من الرزمة ووضعها أمامه.. ثم بدأ يفرغ أفكاره على الورق.. سيقول كل ما يريد قوله ولن يمنعه أحد!

*****

إن الحياة يجب أن تستمر..

تلك حقيقة ثابتة معروفة، ولم تكن النسوة أمثال تلك المكناة "ليز الطويلة» ٢٦ بحاجة إلى أي فلاسفة أو مصلحين أو مدعي حكمة ليقولوا لهن ذلك.. فهن يدركن من تلقاء أنفسهن أن الحياة، شئْن أم أبيْن، ستستمر.. لذلك ورغم كل الذعر الذي فرضته خطوات السفاح الرهيب المجهول قاتل "بولي" و"آني" فإنهن يخرجن كل يوم طلبًا لرزقهن مهما كانت المخاوف التي تعصف بعقولهن.. وهل يملكن سوى ذلك؟!

التسكع في الشوارع صار أكثر خطورة وأكثر أمنًا في ذات الوقت.. تناقض لا يفهمه سوى كل من كان يعمل بمهنة غير شرعية ولا مقبولة اجتماعيا ويتعرض لخطر تهديد مميت.. إن الحراس ورجال الشرطة السريون منهم والمكشوفين للعيان أنبثوا في أنحاء وايتشابل وفي شوارعها وحواريها الضيقة العفنة.. إنهم يراقبون؛ لعلهم يظفرون برأس هذا القاتل السفاح الرهيب، جميل يا بنات الليل، لكن كيف نمارس مهنتنا ومن هم موكلين، كما يفترض، بمنعنا من ذلك، هم أنفسهم الذين يتولون حراستنا وتأميننا؟!

تناقض؟!

بلي لكن تلك الرؤوس الخاوية لم تعتد التفكير الطويل.. فليكن بوليس سكوتلانديارد كله حاضرا في شوارع وايتشابل، وليكشفوا أنفسهم أو يختبئوا كيفما شاءوا.. في النهاية المهنة تسير ورجال سكوتلانديارد يحرسون يا فتيات!

ظهرت بضعة نسوة في شوارع "دورسيت" و"وينتورث" و"هانبري" و"بيرنر" يتسكعن هنا وهناك فُرَادَى، أو ثنائيات، أو جماعات صغيرة، لكن أغلبيتهن كانت تفضل التسكع الفردي لزيادة فرص الإيقاع بزبون مناسب.. ومع تقدم المساء وتأخر الساعة بدأ المزيد من النسوة يظهرن هنا وهناك عند أطراف الشوارع بعيون مفتحة، متنمرات كالضبع بحثا عن صيد مناسب.. وفي نفس الوقت بدأت الطرائد تتزايد في الحي والشوارع المتداخلة فيه.. جاءوا يبحثون عن تلك النوعية من النسوة.. الكل خائف مرتعش، فتيات الليل والرجال الذين أتوا من أجلهن.. لكن الكل يتظاهر بالشجاعة وبأنه لا يعنيه شيء من أمر هذا السفاح العتيّ! ربما يجوز لهن أن يتظاهرن بما يحببن، لكن الحقيقة أنهن، كلهن بلا

استثناء، كانت بواطنهن ترتعش خوفا من سطوته وجبروته.. لكن "ليز الطويلة»، إليزابيث سترايد، فيما يبدو كانت بالفعل أشجع من الباقيات، وأكثر إقداما، أو أكثر تهورا، أيهما أقرب.. لأنها انطلقت على سجيتها، تضحك وتغازل الزبائن وترافق كل من وجدته راغبا في مرافقتها.. وخلال ثلاث ساعات، أو أقل، كانت قد أجهزت على ثلاثة زبائن، وبدأت تجوب الشوارع لتتمم ليلتها بالرابع، والخامس إن وجدت لذلك سبيلا.. لكن يبدو أن حظها الليلة لم يكن طيبا جدا كما تصورت لأنها لن تحظى بزبون رابع، بل ستنال ما لم تتخيله من قبل.. شق طويل يجز عنقها من الأذن حتى الأذن!

في الساعة الأولي من صباح يوم الأحد الموافق الثلاثون من شهر سبتمبر ١٨٨٨م كان "لويس ديمشوتز»، العامل بالنادي التربوي الدولي للعمال الواقع في ٤٠ شارع بيرنر، والذي كانت أغلبية أعضائه من اليهود، يقود عربته ذات العجلتين التي يقودها مهر صغير متعب، عندما حرن جواده وبدا عليه الاضطراب.. كان الشارع غارقا في ظُلمةٍ كاسيةٍ مثيرةٍ للرعب، لكن حتى من موقع "لويس»، فوق عربته، كان يمكن التأكد من

أن ثمة شيء آثار ذعر الحيوان الصغير.. شيء مثير للرعب! لم يكن بوسع الرجل، بسبب الظلمة المطبقة، رؤية أي شيء إلا إذا أقدم على تضحية ضرورية.. إشعال بعض أعواد الثقاب التي يَحوزها.. وعلى ضوء الثقاب الخافت المتراقص رأى ربطة ثياب مكومة لصق الحائط.. كانت تبدو هكذا، مجرد ربطة ثياب.. لكنها لم تكن حزمة ثياب بل كانت جسد آدمي، جسد امرأة ملصقة للحائط وعنقها المقطوع لا زالت الدماء تنزف منه!

كانت "إليزابيث سترايد" المومس ذات الأصل السويدي والمجللة بأربعة وأربعين عاما مسجَّاة..

ذعر الرجل وجرى طالبا النجدة ممن كانوا لا يزالون متواجدين بالنادي، أقرب منشأة، لموقع الحادث.. كان الجسد لا زال دافئا ينزف دمائه حين عُثر عليه!

*****

سيدي الرئيس العجوز..

لم أكن أمزح حين أعطيتك هذه التلميحات.. ستسمع عن أعمال "جاكي"

الوقحة.. غدا، سيكون هناك عمل مضاعف، لن ينتهي بسرعة للأسف.. لم يكن هناك وقت لأحصل على الأذنين لرجال الشرطة.. أشكرك لعدم عرض الرسالة السابقة لهم كما طلبت منك.. حتى أستطيع العودة للعمل مرة أخرى»

"جاك الممزق» ٢٧

وصلت تلك البطاقة البريدية (الوقحة) إلى وكالة الأنباء المركزية في الحادي من أكتوبر، بعد يوم من حادثة القتل المزدوجة في وايتشابل، وتم تسلمها في نفس اليوم.. توافق الخط وأسلوب الكتابة مع ذلك الخطاب الأول الذي تم استقباله يوم السابع والعشرين من سبتمبر توافقا تامًّا.. إن جاك هذا بذيء ووقح فعلا، لكن ذلك ليست النتيجة التي أظهرتها تلك البطاقة المستفزة، فهو شيء معروف ومفروغ منه.. لكنها أظهرت الحقيقة التي كان الجميع يحبون أن يتعامَوْا عنها ويتجاهلوها.. إن مرسل هذه الرسائل المهينة هو فعلا نفسه سفاح وايتشابل الرهيب.. تفصيلة معينة ذكرها أنبأتهم بتلك الحقيقة المفرطة القسوة.. إنه يتحداهم ويملي عليهم شروطه ويسخر منهم ويستهزئ بهم كل هذا في

عقر دارهم ودون أن يخشى منهم، وكأنهم قطيع فئران مذعورة..

إهانة وأي إهانة يا مستر "إيبرلين" فقط لو كنت تحسها!

*****

لم تكن الليلة انتهت بعد.. لا.. فضربة مزدوجة تنتظر تلك المدينة اليائسة التي أنهكها الرعب.. لن تفلتي أيتها المدينة العجوز الشريرة، المتزينة بالقصور والمتحلية بالتيجان والأقراط والجواهر وثمين الثياب لتخفي قبحك ودمامتك وشيخوختك.. لن يفلت أحد منكم!

في الوقت الذي كانت فيه جثة "إليزابيث سترايد" يجري فحصها والتجهيز لرفعها من الموقع، كانت هناك ضحية أخرى تسقط وبنفس اليد القاتلة.. "كاثرين إيدوز»!

انطلقت سفارة الشرطي المناوب في (مايتر سكوير) "إدوارد واتكينز" منذرة بالشر الشنيع الرابض هناك بانتظار الجميع.. جثة ممزقة، جثة أخرى في مدخل المنطقة!

في الواحدة والنصف صباحا، كان "واتكينز" يقوم بجولته المعتادة متفقدا منطقة (مايتر سكوير) تبعا لواجبات مناوبته الليلية المنوطة

به.. وكان كل شيء هادئ وساكن هناك.. ثمة فتيات ليل يتسكعن هناك بانتظار الزبائن لكن لا شيء مثير للذعر أو حتى غريب.. لكن المثير للدهشة حقا أن يعود إلى نفس المنطقة بعد ربع ساعة لا تزيد ليجد جثة تنتظره هناك!

كانت الجثة تعود إلى مومس أربعينية أخرى "كاثرين إيدويس» ٢٨، ذات الستة والأربعين خريفا، كانت ممزقة بفظاعة، وحتى مع الظلام المتناثر هنا وهناك كان من الممكن رؤية أي معاملة فظيعة تلقتها تلك المسكينة.. يكفي فقط أن بطنها كان مشقوقا وأحشاؤها مسحوبة إلى الخارج تطل على العالم بفزع وذهول!

أطلق "واتكينز" صفارته وهرع إلى مخزن الشاي، الموجود على مقربة من موقع الجثة، وجرى ليبلغهم باكتشافه الذي لا يسر.. هرع خلفه الحارس الليلي "جورج جيمس موريس" ليرى ما الأمر بالضبط.. وسرعان ما تجمع رجال الشرطة المنبثين في نواحي وايتشابل في مدخل مايتر سكوير وطُلبت النجدة..

كانت الجثة بحالة مُزرية فعلا.. لدرجة أنها أثارت اشمئزاز الجميع

وذعرهم، بما فيهم د "فردريك جوردون براون" الجراح التابع لجهاز شرطة لندن.. وصل الرجل، حاملا حقيبة أدواته الأساسية، بعد أن دقت الساعة معلنة الثانية صباحا بقليل.. وأخذ في تفحص الجيفة البشعة التي كانت كل ما تبقت من "كاثرين" بعد أن انتهى منها السفاح الرهيب! كعادته قطع حنجرة الضحية بجرحين كاملين.. على ظهرها سجيت المرأة القتيلة وتعرى نصفها الأسفل بواسطة رفع ثيابها فوق بطنها مما جعل فخذيها مكشوفتين للعيان.. ثمة قلنسوة مخلوعة ومنزلقة على مؤخرة رأسها، وصارت الآن تقبع تحت الرأس الجامد.. لم يتمكنوا من رؤية وجهها في البداية، لأن الرأس تمت إدارتها يسارا بحيث يواجه الكتف الأيسر ويبدو كما لو كان في خصومة مع القادمين.. وحين تجاسروا على إدارة الوجه لتفقد حالته، أصيب الجميع بالذعر لرؤية الوجه الممزق المقطع.. الأذن اليمني بشحمتها وصوانها مفقودة، ويبدو أن القاتل أخذها معها كنوع من التذكار.. وأسفل كانت البطن مفتوحة والأحشاء تم جرها عبر جرح البطن ووضعت فوق الذراع الأيمن الذي حُرك إلى الأمام عموديا على وضعية الجسم.. وفي المساحة الواقعة بينهما تقبع

كتلة لحمية يبدو أنه تم انتزاعها من الجسم، على سبيل الدعابة، ووضعت لتتوسط الجسم والطرف الأيمن الممدود.. رحمها اختفى مثلما حدث في حالتين سابقتين.. لكن كان هناك شيء مختلف تلك المرة! شيء مثير للدهشة والخوف.. ويمكن أن يؤدي، إذا لم يُعالج جيدا، إلى وقوع فتنة طائفية في مدينة لندن!

لقد مزق القاتل قطعة من المئزر الذي كانت الضحية ترتديه، وأُخذت القطعة الملوثة بالدم وألقيت في الشارع المجاور.. لكن كان هناك شيء آخر، عدا القطعة الملوثة بالدم، في الموقع.. كتابة على الجدار بالطبشور!

"اليهود قوم لا يُلامون على أي شيء! «

كتبها القاتل، أو منتحل شرير، مازحا أو مقررا حقيقة يؤمن بها، أو مهددا.. وفي كل الحالات تلك العبارة الخطرة، تلك القنبلة الموقوتة المحشوة بالطبشور، لا يجب أن تبقى هنا لتنفجر في وجوه الجميع.. أزيلت الكتابة فورا بأمر من مندوب شرطة العاصمة "تشارلز وارن"، أزيلت حتى قبل أن يتأكدوا ما إذا كانت قد كتبت بيد عابث مر من المكان بالصدفة أم باليد القاتل المجهول نفسه!

*****

وقفت الفتاة جامدة في مكانها حتى تصلبت أطرافها وتيبست مفاصلها.. شيء رهيب أن تُجبر على أن تبقى ساكنا، كسمكة ميتة، واقفا في وضع واحد طوال ساعات، عمل غير محتمل.. إلا في حالة الضرورة القصوى، وقد كانت "ماري جين كيلي" ٢٩ تعاني من حالة ضرورة قصوى في أقصى مداها.. كانت الفتاة العشرينية الشقراء تعمل أصلا كمومس نشطة في أنحاء وايتشابل المتعفنة.. ولم تفكر إطلاقا في العمل كنموذج للفنانين المجانين، الذين هم على شاكلة الفنان الذي أوقفها أمامه ساعات طويلة ليرسمها حتى كاد يُقضى عليها، إلا بسبب الكساد الذي أصاب مهنتها وتناقص دخلها المربوط من تلك المهمة غير المشرفة.. كانت مهنة المومسات قد تعرضت لضربات قوية بسبب جرائم وايتشابل المروعة التي بدأت الشهر الماضي، وقطعت أرجل الكثير من الزبائن الخائفين على حياتهم الغالية عن شوارع الحي، وحتى بنات الهوى أنفسهن قللن من حماسهن والتزمت أغلبهن بممارسة مهمتها داخل بيوت البغاء المقامة في كل ركن من الحي، أو حرصن على ألا يذهبن بعيدا في بحثهن عن الزبائن، ويلتزمن بعدم الاقتراب أو تقديم الخدمة لأي زبون يبدو مريب

الشكل أو غير واعد بما يكفي..

لذلك حينما طلب ذلك الفنان خدماتها، بعد أن أعجب بمنظرها وبقدها الممشوق، لم تمانع إطلاقا، صحيح أنها اشترطت عليه في تحديد الأجر عن أربع ساعات من الثانية وحتى السادسة مساء، إلا أنها لم تفترِ عليه في هذا الأمر، فعمل النموذج، الذي لم تجربه من قبل، ليس عملا ميسورا بأي شكل من الأشكال..

حين ذهبت إليه في اليوم الأول في مرسمه، في الغرفة الفسيحة التي يتخذها مرسما له في شارع يقع بالقرب من وايتشابل، عاملها بلطف.. كان ودودا للغاية معها.. أجلسها فوق معقد مرتفع قليلا، وقدم لها مشروبًا كبيرًا.. ثم طفِق يتأملها بإمعان وكأنه سيأكلها لا سيقوم برسمها.. لم تضطرب لنظراته الفاحصة الجريئة، التي اعتادتها بحكم مهنتها السوداء، لكنها أحست بغرابة سلوكه معها واختلاف معنى نظراته.. لم تحس أنه يتفحصها كفنان أو حتى كرجل، بل شعرت بنظرات قصاب إلى ذبيحته وهو يستعرض تفاصيلها بتلك الطريقة الغريبة!

هل ارتجفت ذعرا.. لا لم يكن الذعر مفردا متوفرا في قاموس "ماري

جين كيلي" الخاص، تركته يفعل ما يود فعله، وأطاعته على الفور حينما أمرها بالاستعداد لرسم صورتها العارية.. وقفت أمام الحائط، حيث احتل الجدار خلفها لوحة هائلة، تغطيه تماما تقريبا، تصور مراعي الفردوس.. إنه سيتخذها نموذجا للمرأة الأولي، حواء أم البشر، وهي خارجة من أدغال الجنة ذاهبة للقاء وليفها، "آدم»، الذي تراه للمرة الأولي..

كان منظرا غريبا لفكرة لوحة أكثر غرابة.. ولكن ما شأنها هي، فتاة الليل البارعة في البيع والشراء، ما عليها إلا أن تصدع وتطيع.. ورغم أنها لم تجرب التجمد في وضع واحد طويلا، وآلمها ذلك في المرة الأولي كثيرا.. إلا أن الأجر المضاعف الذي قدمه لها السيد الفنان، عقب نهاية العمل في اليوم الأول، كان فيه الشفاء لكل آلامها.. لقد ضاعف لها القيمة المتفق عليها وأعطاها بسخاء.. ابتسمت المومس العشرينية وهي تتخيل أنها حصلت على ما تستحقه تماما وربما أقل.. خاصة وهي قد قدمت له خدمة مزدوجة!

عادت في اليوم التالي، فجمدها في نفس الوضع السابق لعدة ساعات

حتى بدا أنه كاد أو أوشك أن ينتهي من لوحته بالفعل.. سعدت لذلك، وتصورت أنه ما إن ينتهي من تلك اللوحة، حتى يستأجر جسدها، وليس روحها التي لم يتبقَّ منها شيء، ليكون نموذجا له للوحة أخري..

لكنه أقدم على فعلة في غاية الغرابة ولا يمكن ابتلاعها إلا إذا صدرت من فنان مختل كما هو الشائع عن صنف الفنانين عامة.. فعندما جاءت إليه في اليوم الثالث.. طردها بكل بساطة ومن على باب المرسم!

لم تكن اللوحة قد انتهت بعد، ولا زالت ثمة نقاط فارغة بها تحتاج إلى ملء، وتنقصها رتوش كثيرة.. برغم ذلك فهي قد حصلت على أجرها، عن اليومين السابقين، وليس من حقها أن تشكو.. أما أمر اللوحة فلا يعنيها في شيء!

وهكذا انصرفت ببساطة.. متوقعة أنها لن ترى السحنة الوسيمة للفنان المعتوه مرة أخري.. لكنها كانت مخطئة فيما يبدو، فقد كان مقدرا لها أن تراه مرة ثانية.. ولكن تلك المرة ستكون مختلفة، تمامًا، عن المرة الأولي!

(٨)

ابتعد الزبون أخيرًا بعد أن نَقَدَ الفتاة أجرها الضئيل.. كانت رغم كل شيء راضية، فقد اتسعت تجارتها وزاد زبائنها، ورضيت بالأجر القليل لأنها آمنت بأن جمع القليل على القليل سيجعل في يدها كثيرا في آخر كل ليلة..

توقفت الأم عن الإحساس بالألم والشفقة، بل والعار، تجاه ما تقوم به ابنتها المراهقة لجلب المال إلى البيت الضيق المتهاوي.. أمدها مرضها الطارئ بمزيد من القوة ومزيد من القسوة.. أما "هيدويج" فلم تعد تشعر بشيء أصلا.. تعودت على التسكع في الشوارع واصطياد الزبائن وتحمل سخافتهم وثقلهم، ونزوات بعضهم الخطرة.. حتى ذُعْرها من بروز هذا القاتل الجهنمي أمامها، مرة أخري، بدأ يخفت قليلا، وإن لم يتلاشَ كليًّا بالطبع..

لقد وقعت ثلاث حوادث قتل في وايتشابل بعد الليلة التي وقعت عيناها

عليه في أزقة الحي المكتسية بالظلام.. لم تره بعدها، وإن داهمتها نوبات ارتيابية رهيبة، جعلتها تتخيل أن كل رجل يقترب منها، أو تقع عيناها عليه في ركن مظلم هو ذاته السفاح الذي قطع عنق "بولي" أمام ناظريها، وضرب أعناق بقية النسوة المسكينات..

لكنها صمدت في النهاية، صمدت وتغلبت على مخاوفها، أو أزاحتها إلى ركن مجهول من كيانها، حتى لا تتعرض للدمار أكثر مما حاق بها بالفعل.. فهناك أفواه جائعة في المنزل الصغير وإطعام تلك الأفواه مسئوليتها هي وحدها.. فلا أحد هناك ليشاركها في تحمل تلك المسئولية الجسيمة!

الأم لا تزال هناك.. لكن ماذا بوسع امرأة مريضة مصدورة ضعيفة أن تفعل؟!

هذه مشيئة الرب.. ولتكن مشيئته رغم كل شيء!

مرير القدر لكننا مجبرون على تجرع كأسه حتى الثمالة..

ذهبت فاتحة عيناها المرهقتين.. غَفَت وهي جالسة إلى طاولة قذرة في حان (الأجراس العشرة) وأخذت تحلم وتستعرض خواطرها وخيالاتها،

حتى سقطت رأسها فوق الطاولة.. نبَّهتها رفيقتها "سيسلي" التي جاءت على الأثر ووجها مشتعل بالحمرة وبعض الخدوش تزين جانب وجهها ورقبتها.. ابتسمت لها "هيدويج" المرهقة وتساءلت وهي تشير للخدوش الظاهرة بجلاء على بشرة صديقتها:

"أتقعين دائما مع الرجال من هذا الصنف؟!»

ضحكت الأخرى بسعادة، وظهرت فكها الأسفل بسنة مكسورة وأجابت بلا اكتراث:

"إنني أنتقيهم يا فتاة (ثم مالت لتقترب من صديقتها كثيرا وأسرت لها بهمس تآمري) فأنا أحب ذلك في الواقع!»

كان لدى "سيسلي" نفس الميول غير الطبيعية، لذلك كانت ترافق الزبائن الذين لهم نفس التوجهات، ولم تكن تجد غضاضة في هذا الأمر أو ترفضه:

"أتمنى أن تقابلي الزبون الذي يُحوِّلك في النهاية لكومة لحمٍ من فرط هيامه بك!»

ضحكت الأخرى ثم أجابت إجابة مثيرة للرعب والشفقة:

"أتمنى ذلك أيضًا يا فتاة.. فأنا لن أخسر شيئًا كثيرًا لو حدث ذلك!»

بدا أن "سيسلي" مستعدة للموت حقًّا بل وربما تتمناه أيضًا:

"لعل القاتل الطليق يعثر عليك ويحقق لك أمنيتك قريبا!»

لم تضحك "سيسلي" وهى تُجيب بصدق كامل:

"هل تعلمين أنني أتمنى رؤيته فعلا!»

ذهلت "هيدويج" وقالت بدهشة:

"أجُننت؟ سيقتلك ويمزق أحشائك كما فعل بهن!»

لكن الفتاة غير المتمالكة لقواها العقلية فيما يبدو أجابت وهي تهز رأسها:

"ليس سيئا! لابد أنه ظريف ووسيم.. أتعرفين أنني متأكدة من أنه بالغ الوسامة وظريف ومهذب!»

تيقنت "هيدويج" من جنون صديقتها المطبق فقالت متوسمة فيها شرًّا:

"أنت مجنونة وستجدين نفسك قريبًا بين ذراعيه ليمزقك.. وحينها ستعرفين أنه وسيم ومهذب حقًّا!»

ضحكت "سيسلي" وهمَّت بقول شيء ما لكنها أشارت إلى الركن فجأة وسألت رفيقتها بجدية:

"هل تعرفين هذه؟!»

لا! لم تكن تعرف المرأة المشار إليها ولا تودّ ذلك..

"من هي؟! «

سألت ثم استدارت لتنظر نحوها.. كانت امرأة طويلة جميلة بشعر أشقر طويل ورداء جلدي أبيض يلمع من فرط النظافة.. كانت تعتمر قبعة صغيرة مزينة بالدانتيلا السوداء وتتمشى بأنفة وخُيلاء بين المناضد المكدسة ببنات الليل وزبائنهن الثقلاء.. كان كثير من هؤلاء الزبائن يديرون رؤوسهم حينما تمر المرأة ذات الرداء الجلدي بقربهم ويرمونها بعبارات غزل صادقة، وهذا كان يُسبب مزيجًا من الغيظ والغيرة والقهر لرفقائهم من النسوة اللائي كانوا يحدجْن المرأة بنظرات الحسد والكراهية.. لكنهن كن يعترفن، بينهن وبين أنفسهن على الأقل، بأن أولئك الرجال المساكين معذورون.. فقد كانت المرأة بالغة الجمال بالفعل!

"إنها "جين كيلي»!

قالت "سيسلي" فتنبهت "هيدويج ا لتي كانت تحتسي بعض الشراب وقالت:

"أحسب أن اسمها "ماري».. سمعتهم ينادونها "ماري" الآن! «

"نعم إن "جين "هو اسمها الأوسط.. اسمها الأول هو "ماري»!

"نعم!»

قالت "هيدويج" فهتفت الأخرى وهي تفرك يديها:

"مالنا ولها.. ماري أقصد.. هيا نبحث عن العمل!»

كانت "سيسلي" نشيطة اليوم رغم ما ألمَّ بالمهنة من كسادٍ بسبب جرائم هذا الوحش المتخفي، لكن لا يحق لها ولأمثالها الشكوى.. فقد كسدت كل أنواع التجارة هنا.. حتى محلات الجزارة خسرت وكاد بعضها يتعرض للإفلاس ومن ثم الغلق.. وهكذا انهارت تجارتين متشابهتين معا.. تجارة لحوم المواشي وتجارة لحوم البشر!

*****

في السادس عشر من أكتوبر تلقى السيد "جورج لوسك»، الذي أنشأ لجنة خاصة لحفظ الأمن في حي (وايتشابل) العريق بجهوده الذاتية، رسالة مستفزة غريبة.. وربما مُرعبة كذلك.. فكاتبها السّمج، المُصِر على أنه سفاح المومسات بشحمه ولحمه، لم يكتفِ بكلماته المهينة المثيرة

للاشمئزاز بل أرفق طردًا صغيرًا مع رسالته المعنونة (من الجحيم) طردًا يحوي نصف كلية يزعم المرسل أنها بشرية وتخص الضحية الرابعة "إيدوز»:

من الجحيم إلى السيد "لوسك»

أرسل لك نصف الكلية الذي أخذته من امرأة واحدة.. لقد قليته وأكلته.. إنه لذيذ! قد أرسل لك السكين الدامي الذي قطعت به الكلية.. هذا لو انتظرت قليلا!

أمسكني إن استطعت يا سيد "لوسك»

"جاك "الممزق) ٣٠

كانت الكلية، التي قد تكون بشرية وقد لا تكون، قد حفظت بعناية في روح النبيذ.. لكن بقي الشك في طبيعتها قائمًا.. هل هي كلية بشرية أم أنها مجرد لعبة سمجة من شخص عفن يبغي ترويع الناس دونما داعٍ.. لقد قضي الأمر على يدي طبيب متخصص.. إنها كلية بشرية ما من شك في ذلك.. لكن هل هي تخص المرأة "إيدوس».. هل هي كذلك فعلا؟!

*****

في ليلة التاسع من نوفمبر من عام ١٨٨٨م (نفس عام وقوع بقية الجرائم) كانت هناك امرأة وحيدة ترقد في غرفتها الصغيرة بالبيت رقم ١٣ بشارع دورسيت خلف محكمة "ميلر" تتهيأ للنوم.. كانت امرأة جميلة جذابة في عامها الخامس والعشرين، ورغم أنها كانت وحيدة إلا إنها فيما يبدو كانت تتوقع حضور زائرٍ ما.. لأنها أبقت باب غرفتها نصفَ مفتوح، لعلها كانت تنتظر زبونًا، أو ليته يكون "جو" قد عاد بعد أن أدرك خطأه وأتى، مرة أخري، ليصححه.. وبدا أن رجاء "ماري" قد أستُجِيب فورًا لأنها سرعان ما سمعت دقات حذرة على باب غرفتها..

وضعت نفسها في الفراش متظاهرة بالضعف، بعد أن ألقت بشعرها الطويل وفرشته على الوسادة أسفل وحول رأسها بشكل مُغرٍ وجذاب.. تنحنح القادم وتأكدت "ماري" أنه ليس حبيبها "جو بارنيت».. "ادخل!»

هتفت مُستاءة وقد تحطم أملها.. لكنها في النهاية قررت أن تؤدي عملها كما يجب، فبضع بنسات في النهاية قد تكون خيرًا لها من "جو" العاطل، فيمكن للبنسات أن تسد فم "ماكرثي" العجوز الذي لا يكُف

عن مطالبتها بمتأخرات الإيجار، بينما لا يمكن ل "جو" أن يفعل ذلك..
دُفع الباب برقة وظهر على عتبته رجل تعرفه مسبقا معرفة جيدة جدًّا..
إنه الرسام! دهشت "ماري" لظهوره أمامها وتساءلت، وهي ترفع نفسها
عن الوسادة وتلملم شعرها، عما دعاه للحضور إليها في غرفتها.. بعد أن
طردها شر طردة من مرسمه!

"ماذا تريد.. سيدي؟!»

كانت على وشك أن تحادثه بلهجة قاسية لكنها تراجعت أخيرًا، فلعله آتٍ
من أجل شيء فيه مصلحة لها، وربما جاء ليطلبها من أجل رسم لوحة
أخرى:

"مرحبا.. جينجر!» ٣١

"مرحبا! «

لم تجد فرصة كافية لتُغادر الفراش فقد جاء فورا وجلس بجوارها على
طرف السرير.. فأحدثت نوابضه المخلخلة صوتًا خفيضًا مكتومًا واهتزَّت
"ماري" في مكانها قليلاً:

"ماذا؟!»

قالت وهي تبتسم له ابتسامة صغيرة، فلم تكن تعرف ماذا يريد منها بعد وما نوع الابتسامة المتماشية مع ما يطلبه:

"جئت لأعتذر لك!»

تأملت وجهه الوسيم المنمنم الدقيق للحظة ثم تساءلت مكذبة:

"حقا؟!»

ابتسم أكثر وهو يميل نحوها أكثر ويقول بهمس متآمر:

"نعم يا ملاكي.. حقا!»

*****

مشي مُتعجلاً مذعورًا حتى كاد أن يقع على وجهه.. لقد رآه ثانية الليلة وزادت شكوكه حتى كادت تضحى يقينا ثابتا! إن لهذا المخبول علاقة بما يجري في الحي اللعين.. وإنه ليقسم على ذلك بأسفار موسى الخمسة كلها!

كان السيد "جوزيف هايم ليفي" القاطن بمنطقة وايتشابل والذي يعمل جزارًا، ويملك متجرًا للحوم في شارع "ميدلسيكس" يُعاني قلقًا

ومخاوفَ هائلة منذ تلك الليلة المشئومة التي كُتب عليه فيها أن يرى قاتل (وايتشابل) بعينيه ومع ذلك هو مُجبَر على ألا يتكلم!

رآه مع تلك المرأة المدعوة "إيدوز" قبل مقتلها بساعات قلائل وكان على ثقة من أنه هو.. لكن هل يتكلم؟!

هل يفشي السر؟!

هل يذهب إلى سكوتلانديارد ويغير إفادته ويعترف بالحق؟!

هل يذهب إلى "سارة" ويتحدث إليها ويُحذرها مما يشك بأن زوجها يفعله.. ربما من الأفضل أن يُرسلوه إلى مصحة عقلية ليتخلصوا من جرائمه ويُخلصوا منه لندن بأسرها!

لكن ما زال السؤال حائرًا في ذهن السيد "ليفي»: هل يتكلم؟!

هل يشي بابن جلدته وابن مهنته وجاره؟!

يا لها من ورطة علقت فيها يا "جوزيف».. فكر ثم تصرف بحنكة وبخبث الثعلب يا رجل، وإلا هلكت ولحقت بأولئك المومسات المقطعات!

*****

"حتى متى تعتقد أنه يمكنها أن تخبئ نفسها؟! «

تساءل "توماس بوير" وهو يدور حول غرفة الفتاة الساقطة "ماري كيلي»، بعد أن دق بابها عدة مرات ليتحصل منها على الإيجار المتراكم عليها منذ ستة أسابيع، محاولا العثور على طريقه ليخترق بها الغرفة المغلقة دونه، بعد أن رفضت المومس الماكرة أن تفتح له الباب قطعا..

إنها تخفي نفسها عنه إذن وتتعمد تجاهله!

حسنا يا "ماري».. حسنا جدا!

سأفاجئك من حيث لا تشعرين.. شب "توماس" على أطراف أصابعه ليصل إلى مستوى نافذة مرتفعة قليلا تفتح على غرفة الفتاة "كيلي»، وكانت مكسورة لحسن حظه، ولسوء حظها هي، فتمكن من أن يدخل يده ويزيح الستار فجأة ملقيا بنظرة إلى الداخل..

كانت هناك إضاءة بسيطة من مصباح ضعيف في الداخل وكانت الغرفة مليئة بالظلال وبالأركان المعتمة.. أَحَدَّ "توماس" بصره واستعد لكي يفاجئ المرأة المختفية بنداء مباغت يجعلها تذوب خجلاً وهلعًا..

""ماري "لا يمكنك..»

قطع كلامه فجأة وتراجع للخلف مغيرًا وضع الاستناد على أطراف قدميه فجأة حتى كاد ينكفئ على وجهه ويهشم أنفه.. لقد رأى الفتاة التي يبحث عنها ممددة في سريرها.. مقطعة إربًا!

صرخ هلعًا وجري ليحضر سيده "جون ماكرثي" ليرى بعينيه هذه البلوى التي لم تكن في الحسبان!

*****

أسرع إلى بيته وكأنه يفر من شيطان يلاحقه.. كانت يداه ملطختان بالدم وعيناه منتفختان والدم يكاد ينبثق منهما..

لقد كانت تلك هي أكثر لياليه جنونا ورعونة.. إنه يشعر بامتلاء وشبع وكأنه أكل فيلاً بأكمله.. يشعر بأنه امتلأ وفعل كل ما كان يود فعله وقد بدأت قواه تخُور فعلا!

كانت يداه مثقلتان بالألم وثمة نبض يدق في عروق رأسه ويكاد يفجرها!

سيذهب الآن إلى البيت.. سيذهب إلى "سارة" سيقول لها إنه سيصبح رجلا طيبا وسيُقَبل "راشيل" ويقول لها إنه سيكون أبًا طيبا.. ثم

سيدخل غرفته ويقتلها!

الجرثومة اللعينة.. لابد أنها تنتظره هناك في أبهى حللها وأتمّ زينتها!
سيُفاجئها وهي تجلس بقدمين عاريتين فوق طرف سريره وسيُهشم رأسها بقبضتي يديه ثم سيقطع أوصالها إِرَبًا إربًا.. سيقطع لحمها ويخرج أحشائها ويهشم عظامها ويشوه وجهها!

قاد جسده المُثقل إلى المنزل ثم حكَّ رأسه وهو في منتصف الطريق وغير رأيه.. سيذهب إلى دكانه أولا! متجره المغلق منذ شهور وشهور..

وصل شارع "ميدلسيكس" ووجد الظلام والرهبة يسيطران عليه.. لم يتبقَّ أحدٌ لم يطارده شبحي "إليزابيث" و"كاثرين" ولا عفريت الطاعن المتواري عن الأنظار! طرد السفاح الناس من شوارعهم فاختبئوا داخل جدرانهم الرطبة العفنة كالجرذان.. مصير لائق بهم بحق ومناسب لهم تمامًا!

مد يديه داخل سترته يبحث عن مفاتيحه.. أتراه لا زال يحملها معه أم أنه أوقعها منذ زمن!

لم يعد يذكر.. لكنها بالتأكيد في مكان ما هنا.. ليأخذه الشيطان إن لم

يعثر عليها! لكن يبدو أن الشيطان كان في غنى عن شخص مختل مهووس كهذا.. لأنه سرعان ما عثر على مفاتيحه داخل جيب داخلي مُهمل في سترته البالية!

أخرج المفاتيح، مفتاحان لا أكثر، معلقان في خيط من الدوبارة المتينة التي كادت تبلى هي الأخرى..

سقطت منه المفاتيح وتشوش ذهنه للحظة.. أحس بقبضة ثلجية تلف أمعائه وبسحابة محملة بالغبار تدوي كالرعد حول رأسه.. غامت عيناه ودار رأسه وأحس أنه سيسقط على الأرض!

تشدد قليلا ونفض رأسه بقوة.. استعاد قدرا من سيطرته على نفسه.. فتح كفه وتأملهما للحظة.. محاولا تخمين أيهما مفتاح البيت وأيهما الذي يفتح قفل المتجر! زغللت عيناه بقوة واكتنفه دوار عنيف جدا.. ترنح قليلا وكاد يسقط على الأرض.. مد يديه، قبل أن يسقط بلحظة واحدة، واستند إلى عارضة الباب الخشبية الثقيلة.. فتح عيناه على سعتهما محاولا تصفية ذهنه ومطاردة الدوار الذي يعصف برأسه ويجعل الدنيا تدور في دوامات من حوله..

تمكن من فتح باب المتجر أخيرًا..

عششت العناكب في كل ركن من أركان الدكان الصغير وتغطت الأرضية، التي كانت ذات يوم لامعة، بالأتربة والغبار وبقايا متعفنة قديمة كادت تتحول إلى تراب هش لأشياء لا تعرف ماذا تكون بالضبط..

عشش الخراب هنا في متجر "جاكوب ليفي»، الذي كان يومًا من أكبر متاجر اللحوم في (وايتشابل) وأكثرها رواجًا وإقبالاً من جماهير المستهلكين.. أما الآن فقد أصبح وكرًا للعفن وموطنًا للعناكب التي تدلت بيوتها في الزوايا كعناقيد من خيبات الأمل! فِيمَ خيَّبت أملك وأمل عائلتك يا "جاكوب».. أيستحق الأمر كل هذه المعاناة وكل هذا الجنون؟!

دخل وهو يذود شباك العناكب عن وجهه بيديه.. داهمه الدُّوار مرة أخرى وأشد هذه المرة.. فاستند سريعا إلى منضدة التقطيع المغطاة بالدم الجاف والعفن القديم.. رفع رأسه قليلا ليجد ظلا مندسا وسط الظلمة يقف على باب متجره!

غامت عيناه وتشوشت رؤيته.. أحس بنذير الخطر فمد يده سريعًا وتناول ساطورًا عملاقًا ملقى بقربه وأحكم قبضته عليه متحفزا مستعدا

لمجابهة أي خطر في العالم.. للحظة ابتسم وقد تخيل أنه ملاك الموت.. جاء ليأخذه إلى الجنة ليبقى هناك مع أبيه! لكنه سرعان ما أدرك خطأه.. فلا يوجد ملاك، حتى ولو كان ملاك الموت، له أنف معقوفة قبيحة وفم صغير مزموم مثير للقرف.. إنه يعرف جيدا اسم صاحب هذه الملامح المرموقة!»

"جوزيف؟!»

هتف متسائلا والدوار يدير رأسه ويفتتها كحبة قمح في طاحونة:

"عمت مساء يا "جاكوب»!»

قال الآخر وهو يدلف إلى المتجر الخرِب بحرصٍ وحذرٍ مُحاولاً تجنب تلطيخ ثيابه النظيفة بالعفونة المنتشرة هنا وهناك:

"لا أريد مساءات ولا صباحات أخرى يا "هايم" الحقير!»

كان ردا متوقعا تماما من "جاكوب" الذي يُكن كراهية شديدة للقادم رغم أنهما ينتميان لكل الأشياء الواحدة في الكون.. نفس السكن والمهنة والديانة وحتى لقب الأسرة ذاته "ليفي»!»

"لا تكن شكسا هكذا يا أخي!»

قال "جوزيف" وهو يدنو، متخذا نفس الحذر، نحو "جاكوب" المستند إلى منضدته مسندًا رأسه إلى كتفيه خشية أن يفلت ويقع منه على الأرض!

"ماذا تريد؟!»

سأله "جاكوب" وهو يشعر بكراهية وحقد كبير نحو هذا المخلوق اللزج ورغبة حقيقية في إيذائه:

"إنك مدين لي بشكر صغير يا أخي.. فقد ضلَّلت مُتَعَقبيك!»

لم يكن "جاكوب" في حالته الراهنة، من الألم والدوار اللذين يعصفان برأسه وتشوش الرؤية، لديه أدنى استعداد لحل ألغاز أو البحث عن حلول لأحجيات؛ فلم يفهم حرفًا مما يقوله زميله:

"متعقبي؟!»

ابتسم "جوزيف" وقال بلهجة فيها مزيج من التهديد والشماتة والمنّ:

"لقد رأيتك مع تلك المرأة.. تلك المرأة "إيدوس».. لقد سألوني وضللتهم لأجلك ولأجل "سارة «!»

حدَّق فيه "جاكوب" بعينين من نار، فاستمر "جوزيف" يسرد قصته

التي لم يعلم بها الأول إلا الآن فقط:

"رأيناك بصحبة تلك المرأة عند تلك الكنيسة.. مايتر سكوير هل تذكر؟! كنا ثلاثة.. أنا والرجلين المرموقين "لاويند" و"هاريس»٣١.. أتذكرهما؟! لقد أرادوا التكلم بحقك لكنني أسكتهما.. لقد ضللت سكوتلانديارد لأجلك يا "جاكوب»»

كان من الواضح أن ثمة غرض قذر للغاية يقبع خلف عبارات "جوزيف" الحريصة المُنتقاة بعناية لإشعار الرجل المريض المشكوك بأمره بالفضل الذي يملكه عليه.. لكن لم يظهر على "جاكوب" أنه يبالي بكل هذا.. انشقت ثنايا فمه عن بسمة غبية للغاية وقال مستسلما لعاصفة تدوي داخل رأسه:

"وماذا تريد الآن.. قبلة؟!»

كان "جاكوب»، رغم الدمار الذي ألحقه به الزهري، قد بدأ يخمن غرض ابن جلدته الخبيث، لكنه انتظر حتى يفصح الأخير عما يريده بوقاحته المعهودة:

"لا!! احتفظ بتلك القبلة لإحدى تلك الفتيات.. إنني أريد شيئا أكثر من

قبلة!»

كان صبر "جاكوب" قد نفد، ورأسه يوشك على الانفجار.. فلم يعد يتحمل المزيد من اللف والدوران.. وأجاب على "جوزيف" بحركة بذيئة للغاية صُدم لها الثاني للحظة، ثم تدارك أمره وتذكر أنه يتعامل أصلا مع مختل:

"""جاكوب».. ما حاجتك بذلك المتجر بعد الآن؟!»

"آه!»

رد "جاكوب" وهو يقاوم الترنح بآخر رمق لديه من القوة:

"بِعْني إياه.. سأُدِيره وسأجعله متجر لحوم ناجح.. أنجح متجر لحوم في وايتشابل كلها..»

نظر له "جاكوب "باحتقار وقد لمعت عينه اليسرى بنظرة شيطانية مخيفة:

"لم تعد تحتاجه في شيء بعد ذلك.. وسيبقي اسم عائلة "ليفي" مشهر عليه ولن يتغير يا عزيزي "ليفي»!»

الآن تجسدت الجرثومة أمام عيني "جاكوب».. رآها تخرج من بين طيات

شعر "جوزيف" العاري وتقفز لتقف أمام صديقها القديم مُستعرضة مفاتنها القبيحة:

"جاكوب».. "جيكوبي" العزيز.. هلم تعال! خذ قبلة يا صغيري!»

عميت عينا "جاكوب ليفي" للحظة ولم يعد يرى شيئًا أمامه.. ثم انقشعت السحابة السوداء وانكشف أمامه وجه "جوزيف" الكريه وعلى ثغره ابتسامة ملق منفرة للغاية..

كان الدم لا يزال على يديه.. ولن يضيره أن يرطبهما بقليل منه مجددا.. ترك المنضدة التي كان يستند عليها ومشي بخطوات مترنحة ثقيلة نحو "جوزيف».. أحس الآخر بالخطر لكنه لم يفكر في التراجع لشدة غبائه.. اقترب منه "جاكوب" كثيرا جدًّا.. لم يكن على وجهه أية ملامح مُنذرة، عدا النظرة السقيمة التي تلتمع في عينه اليسرى.. ابتسم لزائره وقال له بلهجة رجل عاقل رزين:

"جوزيف».. أتعرف؟!»

لم يفهم "جوزيف" مقصده ولم يعطه الآخر الفرصة الكافية ليفكر بذلك.. لأنه وفي لمح البصر، تناول سكينًا عملاقة كانت متروكة مُهملة

على طرف منضدة التقطيع، ودفع بها إلى الأمام.. كانت حركة مباغتة للغاية لدرجة أن "جوزيف" لم يجد فرصة للتراجع حتى أنغرس طرف السكين في صدره..

اتسعت عينا السيد "هايم" رعبًا وأحس أنه قد قضي عليه.. نكص على عقبيه سريعا وقد تأكد أن الله يحبه.. لقد ألهمه خالقه أن يرتدي معطفه الجلدي الثقيل قبل أن يحضر لمساومة "جاكوب" المعتوه.. وإلا لرشق طرف السكين في قلبه بدلاً من أن يرشق في المعطف ويمزقه!

أصابته صدمة مروعة وشحب وجهه وكاد يغمى عليه من الصدمة.. وجد الآخر يتهيأ ليطارده ويغرس سكينه الضخمة في قلبه هذه المرة، وليس في نسيج معطفه الثقيل.. تمالك "جوزيف ليفي" نفسه بصعوبة وجري على قدمين مخلخلتين مرعوبًا، لكنه أخذ يصيح مُهددًا كفأر مذعور يهدد قطًّا يمسكه من ذيله:

"سأخيرهم.. سأخبرهم بكل شيء.. سأذهب إلى "إيبرلين" نفسه وسترى!»

لم يأبه "جاكوب" بتهديدات "جوزيف" ولا بدا كأنه سمعها من

الأساس.. عاد إلى داخل متجره المُقْفَر، واستند مرة أخرى على المنضدة.. انتابه دوار أشد هذه المرة جعله يشعر وكأنه بالون ضخم بدأ الهواء المحبوس بداخله في التسرب.. دار حوله الكون بأسره وشعر وكأن الكواكب تهوي فوق رأسه.. سطعت الشمس أمام عينيه في سماء يُضيئها قمرٌ شاحبٌ قطعه ضباب لندن وفتتَّه.. أحس برأسه تدوي من الداخل بطبل عملاق وصوت الدقات يمزق أذنيه ويحرق عينيه.. أخيرا فقد قدرته على البقاء واقفًا.. هوي أرضا فارتطم بالأرضية القذرة بصوت مدوي.. وبقي ممددا هناك حتى عثروا عليه في الصباح التالي!

كانت تلك آخر مرة يري فيها السيد "جاكوب ليفي" متجره ثانية!

*****

عُوملت تلك الفتاة بوحشية منقطعة النظير.. لقد مزقها القاتل وشوَّهها لدرجة أنه غيَّر معالمها، ليس فقط كامرأة شابة جميلة، بل كمخلوق بشري أساسًا..

فلم يعد الناظر إليها يشعر أن هذه الكومة من اللحم المشوه كانت منذ

ساعات قلائل فتاة شقراء ذات عيون زرقاء ساحرة تسمى "ماري جين كيلي»!

من يُصدق هذا؟!

حضر د"جورج فيليبس" ومعه المفتش "فردريك إيبرلين" شخصيا.. لم يرتح المفتش لوجود د "جورج»، الذي لم يكن يثق بتقاريره الخاصة بالتشريح، وأراد تنحيته عن متابعة تلك القضية الشائكة، لكن إذا كان الرجل حاصره في الركن ووضعه موضع لا يستطيع فيه أن يرفض تواجده في ساحة الجريمة الجديدة فما العمل إذن؟!

أسر الشرطي الكبير لأحد مساعديه فهرع لإحضار د "توماس بوند».. تفرغ الجميع لمعاينة الجثة التي لم يعد باقٍ منها ما يدل على كونها جثة بشرية.. كومة من اللحم تحولت إليها فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها.. لقد بالغ القاتل في تشويهها وتمزيقها لدرجة غريبة.. درجة وحشية لم يروْها من قبل في كافة جرائمه السالفة!

أيكون قاتل آخر هو الذي أجهز على "ماري».. أم أنه ذات القاتل وقد وجد فرصة ملائمة، في مكان مغلق بعيدًا عن العيون المتربصة، لإخراج

جنونه وإفراغ غلِّه كاملا لأول مرة؟!

أيكون هذا هو السبب؟!

خضع ما تبقى من جسد "كيلي" لفحص من الجراحين المخضرمين..

اللذين تناقضت رؤيتهما كل التناقض..

فينما رأى "فيليبس" في تلك الجريمة عملا روتينيا من أعمال القاتل الذي يدعو نفسه (جاك الممزق) وأكد على أن من قام بالتمثيل بجثة الضحية يعلم جيدا ما يفعله، وأنه في أغلب الأحوال، وكما أكدت التجارب الإجرامية السابقة، يتمتع بخبرة تشريحية ليست بالهينة.. أما د "بوند" فرأي أن تمزيق "ماري "كان عملا عشوائيا جنونيًا تمَّ بيد غير خبيرة ولا تعرف ماذا تفعل بالضبط..

كانت خبرة "د فيليبس" بجرائم السفاح وبحالات ضحاياه السابقات أكبر.. لكن حجة "د بوند" كان أقوى، ورده كان أكثر إفحامًا وإثارة للتفكير! إذا كان القاتل في الحالات الخمس هو شخص واحد.. فلم تُرك رحم الضحية الأخيرة في مسرح الجريمة بينما أُخذ في كل الحالات السابقة؟!

أجب يا د "فيليبس».. وإلا فلُذْ بصمتٍ مطبق يشتهيه منك "إيبرلين"

حتى الموت!

(٩)

شاطئ التايمز ملهاته المفضلة..

وقف على ضفة النهر العتيق متأملاً لندن الغافية تحت أنظاره.. لم تكن لندن نائمة بل متناومة متظاهرة بالكرى..

لقد فشا الرعب في الأحياء القديمة المهملة، وأثقل جفونها الحزن والخوف والجزع.. شهران منذ آخر جريمة اقترفها السفاح المخرب المقطع، أو نُسبت إليه وهي جريمة قتل المومس الشابة "ماري كيلي" في التاسع من نوفمبر من العام الماضي.. لقد أصبح كلاهما، الشهر والعام، ماضيين ورحلا غير مخلفين وراءهما سوى حزن ثقيل وحرقة في قلب المدينة التي تتيه على العالم بعظمتها وبهائها.. لم تحزن "لندن" ولم تجزع لموت الفتيات المسكينات اللائي لا أحد يريدهن ولا يعني أمرهن له شيئا.. لكنها حزنت لأنها هُزمت!

نعم أعظم مدينة في العالم هُزمت وبوغتت بالضربة القاضية من رجل مجهول تافه بيده سكين.. رجل تافه مجهول لكنه أبقى الجميع أمامه عاجزين ومقيدي الأيدي ووصمهم بالفشل والخيبة .. أين جدة أوربا العظيمة؟!

إنها في قصرها تفكر في أمر السفاح وتخشى أن يجتاح مدينتها بموجة جديدة من القتل والتمزيق.. جيد جدا إذن فقد تحقق الهدف!

لقد وقفوا كلهم أمامه مغلولي الأيدي وعاجزين كأطفال مبللة أمام ماردٍ جبَّار..

سكوتلانديارد فشلت..

"فردريك إيبرلين" فشل..

كافة رجال البوليس المخضرمين في لندن ومفتشي شرطتها الأشاوس فشلوا!

كلهم فشلوا وتراجعوا وانكبوا على وجوههم أمامه.. لكن هل توارى القاتل فعلا؟!

هل اختفى؟!

هل انتهى أمره؟!

عام جديد يعلق عليه الجميع آمالهم، ليس في تحقيق أحلام ولا الوصول إلى طموحات، فأقصى طموح سكان لندن الآن هو الإفلات من قبضة الطاعن الرهيب، لكن الآمال معلقة على العام الجديد في أن يأتي حاملا في أحشائه الإجابة المنتظرة.. إن القاتل قد توقف!

جزار (وايتشابل) شبع واكتفى ولعق شفتيه وقال لنفسه "هنيئا!»

هنيئا يا فتي.. فقد روعت أولئك الأجلاف المغرورين كلهم ووضعت على أقفيتهم بصمتك التي لن تُمحَى أبدًا!

*****

كبرت "هيدويج" الصغيرة وأضيف إلى عمرها عام جديد لا تعرف كيف سيكون ما ينتظرها فيه..

لم تستفد شيئا من مرور الأيام فقد توقف زمن حياتها الخاص.. وتجمدت سنواتها على شكل يوم واحد طويل لا بداية ولا نهاية له يتخلله جدول ثابت.. مقابلة زبائن، خدمتهم، ثم الحصول على أجرها، ثم العودة للبحث عن زبون جديد.. قد يتخلل ذلك اليوم الطويل الممتد

لحظات متكررة، تأكل فيها أو تنام أو تجلس وسط أخوتها أو تضع رأسها على صدر أمها المريض لتشعر بأن ثمة أحد لا زال يحبها في هذا العالم.. لكن تلك اللحظات سرعان ما تمضي وتتبدد سريعا ليبقى الشيء الوحيد الراسخ الثابت في كونها المظلم.. هو وجوه الزبائن وروائحهم وسِحَنِهم المختلفة المتباينة، المتشابهة في النهاية!

متى تشرق شمسها وينتهي يومها الواحد الطويل هذا.. إنها لا تدري.. ربما بعد عام، عامين، عشرة.. بعض من هُنَّ على شاكلتها قضين سنوات عمرهن كلها يجُبْن الشوارع بحثًا عن الزبائن ومُتْن بين أيديهم أو تحت أرجلهم!

بعد توقف نشاط سفاح (وايتشابل) عادت بنات الليل لممارسة نشاطهن بحماس أكبر وقد تحلَّلن، ولو قليلاً، من سلطان الخوف..

بذلت لجنة "لوسك" جهدها لفرض الأمن على الشوارع المظلمة المُنهَكة بالذعر.. فخرجت جحافل المومسات بعد أن بدا لهُن أن الخطر قد انتهي.. أو أخذ هدنة على الأقل!

لكن في ليلة من ليالي شهر فبراير، وبعد مرور أربعة أشهر تقريبًا على

موت "ماري كيلي" وتوقف نشاط السفاح، تعرضت "سيسلي»، رفيقة "هيدويج"، لموقف مرعب.. فقد ضايقها زبون مختل عقليا بطريقة خطيرة ورفض إعطائها أجرها بعد أن انتهى منها.. ثم عندما ألحت في الحصول على حقها أخرج من طيات ثيابه سكين مرعبة الحجم ووضعها على رقبتها مهددًا إياها بذبحها وتقطيعها مثلما تُذبح الدجاجة وتُقطع! أفلتت الفتاة من بين يديه بأعجوبة وطاردها لبضعة شوارع قبل أن تلجأ إلى حانة (الأجراس العشرة) وتطلب من بعض الرواد حمايتها.. تبخر المطارد المجنون وسارع البعض لمطاردته والبحث عنه، بعد أن وقع في ظن الكثيرين أنه ربما يكون السفاح الذي أعجز شرطة لندن بأسرها.. لكن للأسف لم يعثر أحد له على أثر ولم يهتم أحد بإبلاغ تلك الواقعة الخطرة لرجال الأمن!

أما "هيدويج" فقد استمعت للوصف المفصل الذي أدلت لها به سرًّا رفيقتها عن هذا الزبون المخبول ثم هزت رأسها ولم تُعلق.. لكن في رأسها نطقت خلاياها شاكرة اللّه:

"شكرا للّه.. إنه ليس هو!»

ليس هو ربما.. لكن ما من سبيل للتيقُّن من ذلك!

في الليلة التالية للحادث العرضي الذي مرت به "سيسلي»، وكم تتعرض بائعات الهوى لمواقف مماثلة وأحيانا أكثر خطورة، خرجت "هيدويج" بمفردها للبحث عن صيد جديد.. لقد أتقنت الفتاة المراهقة الحرفة المتعبة وتعلمت كيف تصطاد، وكيف تتجنب من يريدون صيدها مجانًا، وبلا مقابل..

كانت تتمشى ببطء في شارع (ميدلسيكس)، على قيد خطوات من متجر "جاكوب ليفي" الذي أغلق للأبد الآن، بحثًا عن زبون جديد الليلة.. كان الشارع شبه خاوٍ ولا زال رعب السفاح يسيطر عليه.. ارتعدت "هيدويج" عندما مرت بقرب المتجر المظلم المقفل، ولا تدري لِمَ، أحست بالبرودة تترع قلبها وتسري عبر عروقها.. تقابلت بالصدفة مع قليل من بائعات الهوى أمثالها، بعضهن في مثل عمرها أو أكبر منها، يجُبْن الشارع أيضًا بحثًا عن رزق جديد.. كانت تلك من المرات القليلة التي تتوغل فيها الفتاة الصغيرة في أحشاء الحي وحدها هكذا بعد أن قسا قلبها وتحجرت حتى مشاعر الخوف الطبيعية لديها..

الموت ليس شيئًا سيئًا أبدًا بالنسبة للساقطة!

حكمة قالتها لها فتاة ليل مُسِنَّة تركوها في الشارع، بعد أن تهرأ جسدها بسبب الزهري وظلت تنتظر "جاك الطاعن" طويلا.. أسابيع طويلة، متمنية أن يظهر عليها ويشق عنقها لينهي معاناتها في أسرع وقت..

لكن "جاك" لم يظهر ولا عنقها وجد من يقطعه.. بل بقي عنقها ثابتا فوق رأسها حتى اللحظة الأخيرة.. أوه.. لقد رأت الكلاب وهي تتشمم أطراف المرأة المريضة وهي في لحظات الاحتضار الأخيرة!

كم نبدو رخيصات، وكم نحن بلا ثمن وبلا كرامة!

تنهدت "هيدويج" وأغلقت عيناها للحظة تأثرا.. فجأة أطبقت يدين كالحديد على عنقها! لم تجد وقتًا كافيًا حتى لتصاب بالذعر وتنهار.. جذبها إلى بقعة مقفرة تمامًا ومعتمة وألصقها بالحائط وسد بصدره العريض عليها منافذ الهواء وطريق الخلاص..

كان هو.. إنها تعرف أنه هو!

قرَّب وجهه منها وأخذ يتشممها باستمتاع.. أشاحت برأسها متجهة إلى الناحية الأخرى.. لم ترَ وجهه في الظلمة الشاملة لكن صوته العميق

حدثها برفق:

"منذ متى كانت آخر مرة تقابلنا فيها؟!»

لم تجب بل حاولت إدارة رأسها بزاوية حادة محاولة أن تبعد نفسها عنه قدر ما تستطيع حتى لا تشم رائحته، أو تسمع حتى صوته إن أمكن..

أقترب منها أكثر واستحثها على الإجابة:

"متى تقابلنا لآخر مرة؟!»

كانت مذعورة لكنها أحست أن الخطر عليها سيكون أكثر في حالة رفضها التجاوب معه:

"لا أذكر!»

"آه (تنهَّد قائلا ثم مد يده يداعب شعرها المتهدل) يا فتاتي.. يا فتاتي الجميلة!»

تنهَّد بعمق وشعرت "هيدويج" للحظة بشعور غريب قوي رغم عدم ثقتها به أو تأكدها منه.. إنه لن يقتلها ولن يُوقع بها الأذى!»

"نعم.. لا تخافي.. لن أؤذيك مطلقا!»

أجفلت وازدادت نفورًا منه.. سَرَت رعدةً في جسدها الرافض لمجرد قربه

منها وسماعها لصوته.. كانت خلاياها ترتعد خوفًا منه!

"ماذا.. ماذا تريد؟!»

تشجعت سائلة إياه فهتف وهو يقترب منها أكثر حتى تمكنت للمرة الأولي من تمييز أنه يرتدي قبعة عالية تستقر فوق رأس لا ترى حدوده الخارجية بوضوح:

"لا شيء.. لا أريد أي شيء!»

قال مؤكدا ثم ابتعد عنها فجأة.. سرت البرودة في عروقها ورُدَّت إليها روحها الهاربة ثانية.. وبينما كانت تتنفس الصعداء قال بطريقة ودودة مبطنة بالتهديد:

"أريد منك فقط أن تتذكري!»

تنفست الصعداء وسألته بدهشة:

"أتذكر.. أتذكر ماذا؟!"

صمت قليلاً ثم قال وهو يدفعها ثانية تجاه الحائط ويُغلق عليها الطريق بشكل مفاجئ جعلها تكاد تفقد وعيها من فرْط الرعب:

"تتذكري أنك كنت بين ذراعيَّ ذات ليلة.. لكنني لم أؤذيك!»

صمتت هي بينما واصل هو مختبئًا في ظلامه:

"أليس هذا شيء جدير بتذكره يا فتاتي؟!»

لم ترد، فقد كان الخوف يعقل لسانها ويشلّ تفكيرها وتبخَّر يقينها الأول الهزلي بأنه لن يؤذيها:

"أليس كذلك يا فتاتي؟!»

من الخير لها أن تجيب تجنبا لنوبة غضب جنونية منه:

"نعم!»

دفن وجهه في شعرها فأحست بأن قلبها تحول لكتلة ثلج.. همس مطالبًا بالمزيد فراحت تكرر:

"نعم.. نعم.. نعم!»

أصابتها نوبة ذعر هائلة وكادت تنهار وأخذت تردد دون توقف وهي تشيح بوجهها بأقصى ما تستطيع:

"نعم.. نعم! «

قبل أطراف شعرها.. ثم لم تعد تشعر به بقربها!

*****

"«هيدويج»!»

فتحت عيناها لتجد "سيسلي" واقفة أمامها ترمقها بذهول:

"«هيدي».. ماذا تفعلين هنا؟!»

أخذت "هيدويج" تُدير رأسها فيما حولها بجنون وتُردد غير مصدقة:

"هل ذهب.. هل ذهب؟!»

أمسكت "سيسلي" برأسها وثبتتها في اتجاهها وقالت لها بقلق:

"ماذا تفعلين هنا.. من هو الذي تتحدثين عنه؟!»

"كيف أتيت إلى هنا؟!»

سألتها "هيدويج "لتغير الموضوع وهو تحاول التقاط أنفاسها الهاربة المذعورة:

"لقد كنت أمر بقربك بالصدفة فرأيتك ملتصقة بالحائط وترددين كلمة نعم نعم بلا توقف!»

مسحت "هيدويج" جبينها الملتهب وسألت صديقتها بتردد:

"ألم تريّ.. ألم تريّ أحدًا هنا معي؟!»

قطبت "سيسلي" جبينها حتى تداخل حاجباها الرفيعان وتساءلت بدهشة:

"أحد مثل من؟ عمن تتكلمين بالضبط؟!»

سال المزيد من العرق البارد على جبين الفتاة المذعورة فمدت يديها تمسحه.. صمتت قليلاً ثم قالت:

"لا شيء.. لا شيء.. أنا بخير!»

انتهت المناقشة وذهبت الفتاتان معًا تبحثا عن مزيد من الزبائن..

لم تحكِ "هيدويج" لصديقتها حرفًا عما حدث معها.. ولا لأمها أو لأحد من أخوتها كذلك.. أبقت رؤيتها لسفاح وايتشابل سرًّا مخيفًا مصُونًا في قلبها.. ليس من حقها أن تبوح به لأحد! كانت تخشى أن تصطدم به ثانية.. مع إنها أحيانا كانت تتمنى أن تصادفه، مهما كلفها ذلك من رعب، لتسأله فقط السؤال الذي يؤرقها ويُسعدها.. لماذا لم يُؤذِها ولم يُجهز عليها مثلما أجهز على "بولي" و"آني" و"ليز" و"كاثرين" و"ماري»؟!

كانت تريد كذلك أن تعرف معني قبلته الغامضة تلك على أطراف

شعرها..

لكنها برغم توّقها لمعرفة أجوبة تلك الأسئلة الحائرة كانت تخشى أن تلقاه ثانية وتتمنى ألا يحدث ذلك أبدًا.. اجتمع الضدان في قلبها وعقلها.. ولكن ما الغرابة في ذلك.. أليست حياتنا في النهاية كومة من التناقضات تآلفت لتصنع حياة منسجمة أكبر ما فيها هو التناقض!

لكن مخاوف "هيدويج" في النهاية لم يتحقق منها شيء.. فهذا الرجل لم يظهر في حياتها ثانية أبدًا ولم تره ولم تسمع عنه حتى.. وكما انشق عنه ضباب (لندن) فجأة في ليلة مشئومة من عام ١٨٨٨م.. عاد الضباب ليبتلعه ثانية فجأة في ليلة أخرى من العام ١٨٨٩م

*****

لم يره أحد.. لم يسمع عنه أحد.. ولم يرغب أحد في ذلك!

المثير للغيظ أنهم، رغم كل ما بذلوه من جهد ورغم كل ما كابدوه من مشقة وتعب، فإن رجال (سكوتلانديارد) لم يتمكنوا من تحديد شخصية السفاح الذي يسمي نفسه "جاك الطاعن" ولا استطاعوا القبض عليه!

غاب قاتل (وايتشابل) وسط الظلام.. فلم يتبقَّ منه سوة ثلاثة أشياء عدا ذكراه الرهيبة التي لن تنمحي إلى الأبد:

المقابر الحاوية لأشلاء ضحاياه الممزقة والمرقومة أسماءهن عليها.. ورسائله الساخرة المُهينة المُتحدية المُستفزة لرجال سكوتلانديارد الذين سجل عليهم أنهم وقفوا أمامه عاجزين حتى النهاية.. ولِثّمة غريبة على أطراف شعر فتاة نصف طفلة تدعي "هيدويج».. كانت هي الوحيدة التي رأته وكلمته وسمعت صوته وشمت رائحته.. وبقيت حية!

اسأل عن العدد الثاني: لغولة

ملحق بالهوامش الواردة في الفصول

(١) الزهري أو السفلس: مرض منتقل جنسيا

(٢) جيكوب ليفي: جزار يهودي من منطقة (وايتشابل) عاش في الفترة بين عامي ١٨٥٦و١٨٩١.. وكان مصابا بالزهري وبالاختلال العقلي ويعتبر من أكثر المتهمين شبهة في قضية "جاك السفاح «

(٣) بولي: "ماري آن نيكولز "١٨٤٥/ ١٨٨٨م أولي ضحايا "جاك السفاح"

(٤) حافة لندن الشرقية: منطقة الإيست إند التي كان حي وايتشابل واقعا فيها والذي شهد جرائم "جاك "الطاعن فيما بين عامي ١٨٨٨/١٨٨٩م

(٥) الأفاوية: التوابل

(٦) علاج الزهري:

(٧) سبيتلفيلدز: أحد أحياء حافة لندن الشرقية

(٨) جوزيف بازلغيت ١٨١٩/ ١٨٩١م: مهندس كان له دور في

إنشاء أكبر شبكة لصرف المخلفات في مدينة لندن مما ساعد على انحسار الأمراض المتوطنة والمنتشرة

(٩) أليس وإلزا: أسماء بنات "ماري آن نيكولز" الحقيقية

(١٠) أوسبورن وباكز رو: شارعين من شوارع حي وايتشابل

(١١) بودينج لين: (أو بادينج لين حاليا) أحد شوارع لندن

(١٢) إيما سميث: قتلت في شارع أوزبورن في الثالث من إبريل عام ١٨٨٨م ولا تعتبر من ضحايا جاك السفاح

(١٣) الأمير ألبرت فيكتور: ١٨٦٤/ ١٨٩٢م: أحد المشتبه بهم في قضية "جاك "السفاح.. يعتقد أنه كان مصابا بالزهري، أو أنه كان على علاقة بفتاة كاثوليكية وضيعة من العامة

(١٤) حرب البوير: توجد حربين باسم حرب البوير (وقعتا بين القوات البريطانية والمستعمرين البوير في جنوب إفريقيا) الأولي ١٨٨٠ /١٨٨١ والثانية ١٨٩٩/١٩٠٢م

(١٥) عائلة فيلف أو فلف welf: اسم العائلة الألمانية النبيلة التي ينحدر منها بيت (هانوفر) الحاكم في بريطانيا والذي

تنتمي إليه الملكة "فيكتوريا" ثم تغير لقب الأسرة الحاكمة في بريطانيا إلى وندسور في عام ١٩١٧م

(١٦) جاسكوين: روبرت جاسكوين سيسل سياسي بريطاني شهير شغل منصب رئيس الوزراء في ثلاث مرات بين أعوام: ١٨٨٥/١٨٨٦ و١٨٨٦/١٨٩٢ و١٨٩٥/١٩٠٢م

(١٧) دوق كلارنس لقب الأمير "ألبرت فيكتور" وماركيز سالسبوري: لقب السير "روبرت جاسكوين"

(١٨) البرداء: الملاريا

(١٩) الباوند: الجنيه الإسترليني

(٢٠) "فيري فاي" و"آني ميلوود" و"إليزابيث سميث" و"مارثا تيبرام" و"وكاري براون": ضحايا أخريات، سقطن قبل وبعد فورة الجرائم الخمس في وايتشابل، يعتقد البعض أنهن من ضحايا جاك السفاح بينما لا يدرجهن أغلبية المؤرخين ضمن جرائم قاتل وايتشابل الخفي

(٢١) فردريك جورج إيبرلين: رئيس مفتشي سكوتلانديارد في فترة

وقوع جرائم سفاح وايتشابل

(٢٢) عائلة جاكوب ليفي: كان الخبال متوفرا في عائلة جاكوب ليفي وكان أخوه الأصغر مختلا عقليا كذلك ومات هو نفسه في مصحة عقلية

(٢٣) الدكتور "جورج باغستر فيليبس": أحد الأطباء الشرعيين الذين قاموا بفحص بقايا ضحايا جاك الطاعن

(٢٤) والتر سيكرت: ١٨٦٠/١٩٤٢م رسام بريطاني من أصل ألماني وأحد المشتبه بهم في قضية "جاك" السفاح

(٢٥) فريد بيست: صحفي بريطاني أعترف عام ١٩٣١م بأنه زور رسائل جاك السفاح من أجل الحفاظ على حيوية قضية والحفاظ على الأعمال من الركود

(٢٦) ليز الطويلة: لقب عرفت به إليزابيث سترايد (١٨٤٣/١٨٨٨م) الضحية الثالثة للسفاح

(٢٧) ترجمة البطاقة اعتمادا على نصها الكامل في كتاب (القصة الحقيقية لأبشع قاتل في التاريخ) للكاتب / ساهر الأسيوطي

(٢٨) كاثرين إيدوز: (١٨٤٢/١٨٨٨م) الضحية الرابعة لجاك السفاح.. قتلت في الحادث المزدوج مع "إليزابيث سترايد" في ليلة الثلاثين من سبتمبر عام ١٨٨٨م

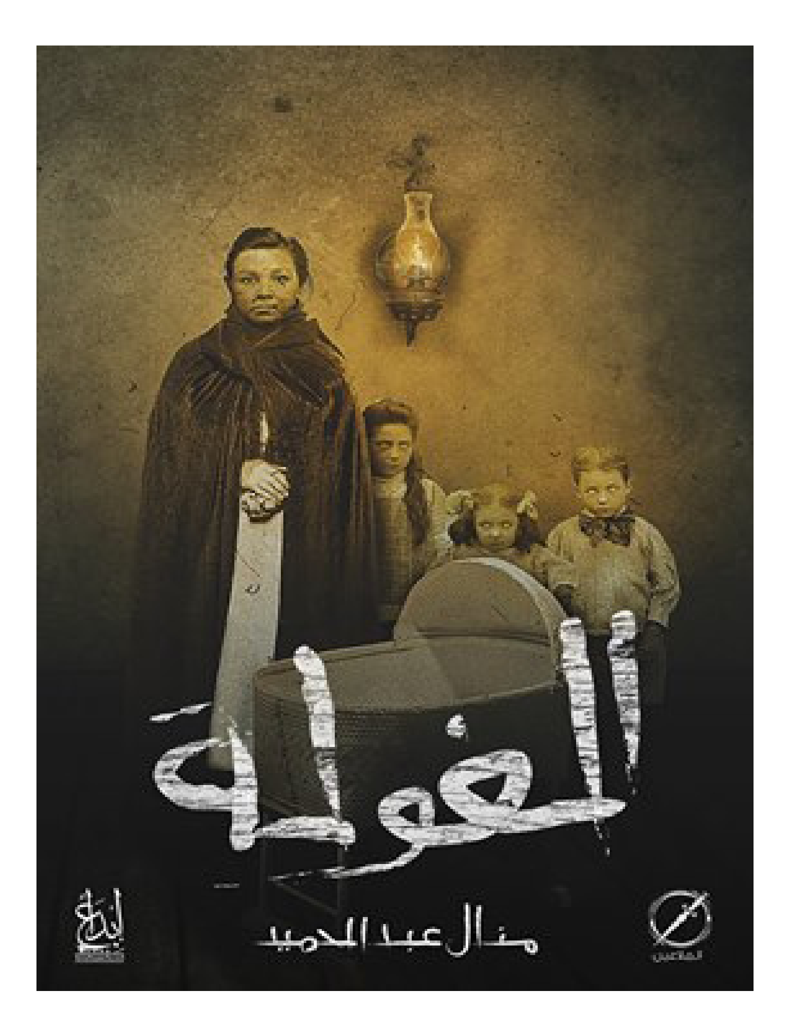
(٢٩) ماري جين كيلي: ١٨٦٣/١٨٨٨م آخر الضحايا الخمس المقيدات على ذمة "جاك" السفاح وقد قتلت في يوم التاسع من نوفمبر عام ١٨٨٨م

(٣٠) نفس الكتاب للكاتب / ساهر الأسيوطي

(٣١) جينجر: أحد ألقاب الضحية الأخيرة لجاك السفاح "ماري جين كيلي" ١٨٦٣ / ١٨٨٨م

(٣٢) جوزيف هايم ليفي وجوزيف لاويند وهاري هاريس: الشهود الثلاثة الذين شاهدوا الضحية "كاثرين إيدوز" تتحدث إلى من يُعتقد أنه جاك السفاح نفسه بالقرب من كنيسة في مايتر سكوير ليلة مقتلها

العدد الثاني : الغولة


منال عبد الحميد



للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com